

قال محمد بن خالد

الذوق

على السلام

الذوق

خالد محبت خالد

اللَّهُ

فِي الْإِسْلَامِ



جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى { صفر ١٤٠١
{ يناير ١٩٨١

الناشر دار ثابته للنشر والتوزيع ٩٢ (أ) شارع محمد عريد - القاهرة
ص.ب ٦ باب اللوق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

وَلَا تَتَّبِع أَهْوَاءَهُمْ

وَاحْذَرَهُمْ أُنْ يَفْتِنُوكَ

عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

في عام ١٩٥٠م ظهر أول كتاب لي ، وكان عنوانه :
« من هنا .. نبدأ » .

وكان ينتظم أربعة فصول ، كان ثالثها بعنوان : « قومية الحكم »
وفي هذا الفصل ذهبت اقرر أن الاسلام دين لا دولة ، وأنه
ليس في حاجة الى ان يكون دولة . . وان الدين علامات تضيء لنا
الطريق الى الله وليس قسوة سياسية تتكلم في الناس ، وتأخذهم
بالقسوة الى سواء السبيل . ما على الدين الا البلاغ وليس من حقه
ان يقود بالعصا من يريد لهم الهدى وحسن ثواب .

وقلت : ان الدين حين يتحول الى « حكومة » ، فان هذه
الحكومة الدينية تتحول الى عبء لا يطاق . وذهبت اعدد يومئذ
ما اسميته : « غرائز الحكومة الدينية » وزعمت لنفسى القدرة على
اقامة البراهين على انها اعنى الحكومة الدينية في تسع وتسعين في
المائة من حالاتها جحيم وفوضى ، وانها احدى المؤسسات التاريخية
التي استفدت اغراضها ولم يعد لها في التاريخ الحديث دور تؤديه .

وكان خطئى اننى عميت الحديث حتى شمل الحكومة الاسلامية .
وقلت : ان غرائز الحكومة الدينية تجعلها بعيدة من الدين كل
البعد ، ولخصت هذه الغرائز فى :

(١) الغموض المطلق ، اذ هى تعتمد فى قيامها على سلطة
غامضة ، لا يعرف مآتها ، ولا يدرك مداها ، وصلة الناس بها يجب
ان تقوم على الطاعة العمياء والتسليم الكلى والتفويض المطلق . .
(٢) ومن خصائصها — كما قلت يومذاك — انها لا تثق بالذكاء
الانسانى ولا تأنس له ، ولا تمنحه فرصة التعبير عن ذاته ، لانها
تخافه وتخشاه .

(٣) وهى لكى تتفجع الناس بضرورة قيامها ويقائنها تهيب بجانب
الضعف فيهم . فتلقى فى روعهم ان رواد الخير والحسنة والفكر
والاصلاح ليسوا سوى اعداء لله ولرسوله يحاولون نفي الدين عن
المجتمع بنفى السلطة التى تمثله وتمسونه .

(٤) والغرور المقدس من شر غرائز الحكومة الدينية ، وهى
لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه . بل ولا مجرد لفت النظر فضلا
عن المعارضة والنقد .

(٥) والوحدانية المطلقة اعنى غرائزها — وهى تحفزها الى
مكافحة الراى مهما يكن حكيما ، وقتل المعارضة مهما تكن مخلصه
نافعه .

(٦) والجهود الذى تنسجم به يجعلها تضيق بكل جديد لان
صورة الدين فى ذهنها مرتبطة بكل ما هو جامد وقديم .

(٧) والقسوة المتوحشة هي سيدة غرائزها وأكثرها عشوا
وتفوقا وانها لتحز عنقك وتهرق دمك وهي تصيح من غرط نشوتها :
واها لريح الجنة ..

* * *

هكذا ذهبت انعت واهدم ما اسميته يوما بالحكومة الدينية .!
وهكذا اخذت كل خصائص ونقائص الحكم الانتقراطي
الديكتاتوري وخلعته على ما اسميته « الحكومة الدينية » .. !!
ولم اكن يومئذ اخذع نفسي ولا ازيف اقتناعي ، فليس ذلك
والحمد لله من طبيعتي . انما كنت مقنعا بما اكتب مؤمنا بصوابه .

وحين ارجع بذاكرتي الى الايام التي سطرت فيها هذا الراي
وهذه الكلمات لا اخطيء التعرف الى العوامل التي تغشيتني بهذا
التفكير .. والكاتب حين يحيا بفكر مفتوح بعيدا عن ظلام التعصب
وغواشي العناد ، فانه يستطيع دائما او غالبا ان يهتدى الى الصواب
ويقترب من الحقيقة ويعانقها في يقين جديد ، وحبور اكيد ، ونحن
مطالبون بان نفكر دائما ، ونراجع افكارنا ، ونفكر فواتنا ونتخلى عن
كبريائنا امام الحقائق الواغدة .. واذا لم نفعل فسنكون كما تسال
« افلاطون » :

« مجانين ، اذا لم نستطع ان نفكر .. » !!

« ومتعصبون ، اذا لم نرد ان نفكر .. » !!

« وعبيد اذا لم نجسروا ان نفكر .. » !!

* * *

واحمد الله على اننى لست من المجانين ، ولا المتعصبين ، ولا العبيد . . . ومن اجل هذا كان من اليسر على ان استقبل في بشر ومودة هذا التفكير الجديد الذى واتانى من طول التأمل والتمعن وتقليب وجوه النظر في حياذ سعيد .

ترى ماذا كانت المقدمات التى اوصلتني الى موقفى القديم من « الحكومة الدينية » ، او بتعبير اصح ماذا كانت البواعث النفسية والفكرية التى افضت بى الى ذلك الموقف . . . ؟؟

واود — اولا — ان اشير الى ان تسمية « الحكومة الاسلامية » بالحكومة الدينية فيه تجن وخطا . فعبارة « الحكومة الدينية » لها مدلول تاريخى يتمثل في كيان كهنوتى تام فعلا ، وطال مكثه . وكان الدين المسيحى يستغل ابشع استغلال في دعمه وفي اخضاع الناس له .

فالحكومة الدينية مؤسسة تاريخية نهضت على سلطان دينى بينما كانت اغراضها سياسية ، واصلت الناس سعيرا بسوء تصرفاتها وتحكمها . . . وهى في المسيحية واضحة كل الوضوح بينما الاسلام لم يشهد في فترات استغلاله ما شهدته وما تكبدته المسيحية ، لا سيما في العصور الوسطى ، عصور الظلام !!

ولعسل اول خطأ تغشى منهجى الذى عالجت به قديما قضية الحكومة الدينية ، كان تاثرى الشديدا بما قرأته عن الحكومات الدينية التى قامت في اوربا ، والتي اتخذت من الدين المسيحى دثارا تغطى به غريها وعلرها . . .

اجل . غائى استطيع ان اخص بواعثى في ذلك التفكير القديم

واردها الى عاملين اثنين — كان هذا اولهما .. التاثر بما قرأته عن الحكومة الدينية المسيحية ، ولذلك تجدنى اقول في كتابى « من هنا نبدا » .

« .. ففى الحكومات الدينية المسيحية ابتكرت وسائل التعذيب التى لا تخطر للشيطان نفسه ببال ، فكان الخازوق ، ووتد التشهير ، وصلم الأذان ، وتمزيق الجسد ، ومحاكم التنقيش ، وحرق العلماء بالنار وهم احياء !! » .

ثم قلت :

« وفى الحكومات الدينية الاسلامية حدثت اموال مروعة ، حتى ان حاكما دينيا واحدا — هو الحجاج — اباد البقية الكريمة الصالحة من صحابة رسول الله ، حتى قال عنه «عمر بن عبد العزيز»
« لو جاءت كل امة بخطاياها ، وجئنا نحن بنى امية بالحجاج وحده لرجحناهم ... !! »

انن ، فقد كنت فى قمة التاثر ببشاعة وجرائم الحكومة الدينية المسيحية ، ثم عكست الصورة فى غير حق على الحكام السياسيين فى الاسلام واعتبرتهم حكومة دينية اسلامية .. !!

ومضيت ادحض ما اعتبرته حكومة دينية فى الاسلام بنفس القوة التى ادحض بها الفكر الانسانى الرشيد الحكومة الدينية التى قامت فى ظل الكنيسة وكانت اكثر خطرا على المسيحية من الشيطان نفسه !!

من قال ان الحجاج حاكم دينى .. ؟ وهل فى الاسلام كهنوت

يستطيع أي حاكم أن يستمد منه سلطانا مطلقا وفي ذات الوقت يكون مقدسا ..؟؟ لا . ومع هذا فقد اقتنعت قديما بهذا الذي يبدو لي اليوم تجنيا وخطأ .

ان الاسلام حتى في فترات استغلاله من بعض الخلفاء والحكام لم يمنح ايا منهم سلطة بابوية كهنوتية ، لانه لا يتسع لاي كهنوت لا في تعاليمه ولا في تطبيقاته .

من اجل هذا كان تسمية الحكومات الاسلامية المنحرفة بالحكومة الدينية وتحميل الاسلام وزرها امر مجاف لكل صواب ..

* * *

اما العامل الثاني الذي شكل تفكيرى وموقفى من الحكومة الدينية فقد كان عاملا موقوتا بزمانه . ولكنى جعلت منه قاعدة عامة بنيت عليها حكمى القديم .

ذلك ان « الاخوان المسلمين » كانوا قد بلغوا خلال الاربعينات من الكثرة والقوة والنجاح مبلغا يكاد يكون منقطع النظر .

كانت دعوتهم تسرى بين الناس كالضوء ، وكان الشباب بصفة خاصة يقبل عليها اقبال اسراب النحل على رحيق الزهور !!

وذات يوم والجماعة في اوج مجدها الباهر ، لا ندري هل اثبتق منها، او اقحم عليها وتسلل اليها ما سمي يومئذ بالتنظيم السرى . وارتكب هذا الجهاز جرائم مفكرة وتوسل بالاعتقالات لفرض الدعوة .. الدعوة التى كانت قد حققت بالاقناع والمنطق ما لم تحققه

دموة أخرى .. والدموة التي كانت لباقية مرشدها الاستاذ حسن البنا
رحمه الله واخلاصه يفتحان له الأذان الصم والقلوب الغلف ،
ويسلسان له قياد الجماهير كافتهم ومثقتيهم .

لغنت حوادث الاغتيال التي مارسها ذلك الجهاز السرى انتباه
الناس وروعت أفئدتهم . وكنت من الذين أقض مضجعتهم هذا
الفذير . وقلت لنفسي اذا كان هذا مسلك المتدينين وهم بعيدون عن
الحكم ، فكيف يكون مسلكهم حين يحكمون !!

وتفكرت كلمة المفكر الفرنسى « فولتير » :

« ان الذى يقول لك اليوم : اعتقد ما اعتقده والا لعنك

الله ، سيقول لك غدا : اعتقد ما اعتقده والا قتلتك !!!

على ان ذلك الجهاز السرى اختصر طريقه آنذاك فتخطى
وتجاوز مرحلة اللعن الى مرحلة القتل والاغتيال !!

كان هذا هو العامل الثانى الذى جنح بتفكيرى الى التحسيز من
قيام اى حكومة دينية باسم الاسلام .

وكان هذا خطأ آخر وقعت فيه ..

كان الخطأ الاول مضاهاتى الحكومات الدينية الكنسية بحكم
الاسلام .

وكان الخطأ الثانى تعميم نتائج ما اقترغه الجهاز السرى
باسم الاسلام .

وفى كلا الخطأين كان هناك خطأ فى المنهج ذاته . فقد جعلت
ما تأثرت به من قراءاتى عن الحكومة الدينية فى المسيحية ، وما تأثرت

به من تحول بعض الشباب المسلم من نساك الى قتلة . . جعلت هذا
وذاك «مصدر» تفكيرى ، لا «موضع» تفكيرى !! وغارق كبير بين أن
تجعل الحدث أو الشيء مصدر تفكيرك وبين أن تجعله موضع تفكيرك .

عندما يكون مصدر تفكيرك غانه يقودك فى طريقه هو ، لا فى
طريق الحقيقة . وتبصر نفسك من حيث تشعر أو لا تشعر مشدودا
الى مقدمات وسائرا نحو نتائج لم يأخذ الاستقلال الفكرى حظه فى
تمعنها ودراستها .

أما حين يكون الشيء موضع تفكيرك غانه يهد تفكيرك المحايد
والمستقل بكل اعتبارات القضية المدروسة دون أن يلزمك بحكم
مسيق يتحرك الفكر داخل اطاره الحديدى الصارم .

الى هذا السبب الجوهرى ارد خطئى فيما أصدرته — قديما —
من حكم ضد الحكومة فى الاسلام ، هذه التى اسميتها بالحكومة
الدينية .

- ٢ -

والآن ، وفى ضوء اقتناعى الجديد بان الاسلام « دين ، ودولة »
فكيف وصلت الى هذه الحقيقة ؟؟ وما تشكل هذه الدولة ؟؟
وما اغراضها واهدافها حين تقوم ؟؟

أما التقائى بهذه الحقيقة ، أو لتواضع ولنقل هذه النتيجة . .
فقد جمعتى بها فى لقاء سعيد ، العقل لا الوجدان .

لقد توارت الاسباب التي حدثتكم عنها من قبل ، واستقبلت
التضحية بعقل غير عصى ، ونفس تواقمة الى معرفة الحق واعلانه
بصوت جهير ، دون أن تجد غضاضة أو خجلا من أن تعترف بالخطأ
وتواجه الصواب .

قلت لنفسى :

قبل أن يكون هناك اسلام كان هناك عرب . وهؤلاء العرب
هم الرعييل الاول الذي حمل راية الاسلام ، وسار بها مشرقا
ومغربا . . فهل كان اولئك العرب عنصرا مهيا لان ينشئ « حكومة »
او يتقبل تبعاتها ويحملها في اقتدار . . ؟!

هل وقعت للعرب قبل الاسلام تجربة مع الحكم فأسسوا دولا
وحكومات ؟

انه على فرض انتفاء هذا الامر ، فلن يسلب الاسلام حقه ولا
مقدرته على تأسيس دولة .

فلك ان الاسلام جاء ليكون قوة تغيير عميمة وشاملة . . جاء
بغير العقيدة والمجتمع والسلوك .

فحتى لو لم يكن للعرب سابقة مع الحكومة ، فان الاسلام
بخصائصه قادر على تمكينهم من ممارسة هذه التجربة بنجاح .

ومع هذا نسنرى ان هؤلاء الذين نزل الاسلام اول ما نزل
عليهم وغيرهم ، كانوا وكان آباؤهم ممن أنشأوا الممالك والامارات .

فقبل مجيء الاسلام بقرون ، كان هناك عرب لهم حكومات هم
الذين أنشأوها ، وحنسارة هم الذين صنعوها .

يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن (١) :

كان في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية مملكة سبأ وحمير وقد بلغت هذه البلاد قبل الميلاد قبل الميلاد بألفي سنة درجة من الحضارة تدل عليها اطلال المباني الضخمة ، والنقوش الكثيرة . وهناك شواهد كثيرة لهذه الشهرة والعظمة والابهة التي وصلت اليها مملكة سبأ .

كذلك كان هناك من المغرب مملكة الحيرة ومملكة الغسانيين . وكان في جزيرة العرب نفسها ملوك من قبيلة كندة ، وكان موطنهم بلاد حضرموت الواقعة في الجنوب الشرقى .

وكان هناك مملكة « معين » وقد سبقت مملكة « سبأ » في الظهور وكانت على جانب عظيم من البأس والقوة .

وتلتها في الظهور مملكة سبأ التي اشتهرت بالثروة والقوة بين ممالك العالم في ذلك الحين ، وبلغ من قوتها أن ردت جيوش « أوغسطس قيصر » عن أسوار مأرب ودحرتها .

وكان لها تجارة واسعة مع مصر ، وسوريا ، وبابل . . ولا تزال سدودها واحواضها تثير اعجاب الرحالة والسائحين ، وتدل آثارها واطلال ابنتها الفخمة على ما بلغت من العظمة والمجد .

وكان لها اسطول بحرى ينقل تجارتها الى حيث تريد ، كما كان لها قوافل تخترق الصحراء الى الشام وفلسطين لنقل سلعها التجارية

(١) تاريخ الاسلام السياسى ج ١ .

وكذلك كان هناك مملكتا الحيرة وغمسان ، قامتا على حدود
بادية الشام .

وكانت الامبراطورية الفارسية تستعين بمملكة الحيرة على
محاربة الروم . كما كان الرومان يستعينون بأمراء غمسان على
الفرس .. !!

وقد استمرت مملكة الحيرة من القرن الثالث الميلادي حتى
ظهور الاسلام . وكان لاهلها اثر كبير في الحضارة العربية . وتعاقتب
على ملكها خمسة وعشرون ملكا .

ويقول الدكتور احمد سوسة في كتابه « حضارة العرب ومراحل
تطورها عبر العصور » .

« تبدأ المرحلة الاولى من حضارة العرب القديمة في
حوالي اربعين الف سنة قبل الميلاد ، وتنتهى في حوالي
ثمانية عشر الف قبل الميلاد . وقد عاشت هذه الحضارة
ضمن حدود جزيرة العرب ..

« ... ويرى الخبراء المتخصصون في شئون البلاد
العربية ان الهجرة من جزيرة العرب تمت في الاصل من
منطقة جنوبي الجزيرة . ومنها توجهت الجماعات النازحة
من جزيرة العرب الى الشمال ، ثم توزعوا على اطراف
الهلال الخصيب في فلسطين وسورية ومصر والعراق ..
« وفي هذه المرحلة من حضارة العرب استطاعت القبائل
العربية النازحة من جزيرة العرب بفضل الحضارة

والخبرة اللتين اكتسبتهما في وطنها الاصلى خلال فترة الازدهار من تأسيس الحضارات السامية العربية الكبرى في مستوطناتها الجديدة . . فأسست هذه التبادل في مدة قصيرة نسبيا لا تتجاوز ثلاثة آلاف سنة أقدم الامبراطوريات واعظمها مما عرفه تاريخ العالم القديم في تاريخ البشرية اى الامبراطوريات الساميات الاربع : الاكديّة ، والبابليّة ، والآشورية ، والكلدانية الآرامية . .

« ان الهجرات المتتالية التي انبعثت من جزيرة المسرب كانت من اهم العوامل في تقدم الكيان الحضارى في الشرق الاذنّى والسريبه نحو التطور في مختلف الميادين الزراعية والتجارية ، والسياسية ، والعسكرية ، والاجتماعية ، والثقافية ، والدينية . ذلك الكيان الذى انبعثت منه أقدم الامبراطوريات واعظمها فيما عرفه التاريخ . .

« فالجزيرة العربية اذن هى بحق مهد الحضارات السامية العربية ، فقد قذفت بأبنائها الاشداء الى ماوراء الصحارى . . ففى والحالة هذه ينبوع الذى انبعثت منه جميع الحضارات العربية السامية في الهلال الخصيب . . « وكانت مستوطنات شعب الجزيرة في عالمه الجديد تؤلف عالما عربيا واحدا يتميز بقوميته العربية تعززه وحدة جغرافية واحدة مترابطة الاجزاء تضم الجزيرة العربية « الام » وانباءها في بلاد المهجر . .

« لقد كان هؤلاء العرب بناء اعظم واقدم امبراطورية

سامية عرفها التاريخ . وهي الامبراطورية الاكدية التي
اسسها « سرجون » في القرن الرابع والعشرين قبل
الميلاد والتي سميت بالاكديّة نسبة الى عاصمتها « اكد »
« وعندما استقرت الحضارة السامية في العراق ازدهرت
فيه سلسلة متواصلة من الممالك العظيمة لعبت دورا
رئيسيا وهاما في تقدم الحضارة الانسانية . .

« واقد بقيت الحضارة العربية فترة من الزمن بين الهند
والجزر كونت في خلالها دولا عربية كدولة الفساسنة في
سورية ، والمناصرة في العراق ، ودولة الانباط والتدمريين
وغيرها من الامارات العربية كماهارة كندة ، وامارة الحضر
وامارة الرها ، وامارة حمص وغيرها حتى ظهر الاسلام
فاتبعت به الحضارة العربية على مستوى اوسع واعم ،
وعادت فاتبعت من منبعها الاصلى (جزيرة العرب)
واستت دولة عظمى فاقت جميع الدول التي سبقها
بحيث شملت القارات الثلاث (آسيا وافريقيا واوروبا)
. . وقد حاولت اوروبا المسيحية قهر الحضارة العربية
الاسلامية وابادتها ولكنها فشلت بعد محاولة استمرت
حوالي مائة وخمسين عاما .

ويختم المؤلف بحثه هذا بكلمة « جورج سارتون » الذي يقول :
« سبق للعرب ان قادوا العالم في مرحلتين طويلتين من
التقدم الانساني طوال النى سنة على الاقل قبل ايام
اليونان ثم في العصور الوسطى اربعة قرون تقريبا

وليس ثمة ما يمنع هذه التسعوب من ان تقود العسالم
ثانية في المستقبل القريب او البعيد .

* * *

اذن كان هناك مسالك عربية وحكومات عربية وحضارة عربية
ايام كانت « اوريا » وما حولها مغارات وكهونا ، وظلاما في ظلام .
واذن ، غالبية التي نزل عليها الاسلام كانت ذات ماض عريق
وتجربة عريقة وممارسة طويلة الامد مع الحكم والحكومات .
ونحن نعلم ان الاسلام جاء ليحدث تغييرا وتصعيدا . تغييرا
للباطل ، وتصعيدا وتعلية لكل ما هو ضرورى وحق .
ولم يكن العرب في عصور الجاهلية الموغلة في البعد ، بقادرين
على ما يعجز عنه اسلافهم في ظل الاسلام بكل قوته وعظمته ورشده .
وحتى مكة — غيبا بعد — والتي لم تكن فيها حكومة ، نجدها قد
قامت بتوزيع مسئوليات الحكومة على قبائلها وبيوتاتها واغذاذ رجالها
فكانت قوى المجتمع هي التي تحكم وتقود في تنظيم ناضج وسديد .
والمدينة كانت قبل ذهاب الاسلام انيها تنهيا لتقويج ملك عليها
واذا قام الملك قامت حوله الحكومة على نحو ما . . .
وهكذا لم يكن الاسلام يعمل في خواء ولا يبدا من فراغ حين
يدعو اتباعه لتأسيس حكومة ، بل وحين يبدا بالفعل في تأسيس دولة
وقف على راسها امام المتقين وخاتم المرسلين وخير خلق الله اجمعين .

وعندما توجد « أمة » تؤلف بينها وحدة اللغة والجنس والدين . . .
وتوجد الأرض أو « الوطن » الذى تقطنه هذه الأمة . . . ثم توجد
« سلطة عليا » تنظم شؤون هذه الجماعة ، فقد وجدت الدولة . . .

ولقد توغر هذا كله للامة المسلمة بعد ان استقر مقام المسلمين
في المدينة . فقد كان هناك « أمة » هي أمة الاسلام . وكان هناك وطن
وعاصمة لهذه الامة ، هي « المدينة » . . . وكان هناك سلطة عليا تتمثل
في الرسول صلى الله عليه وسلم بما يوحى اليه من ربه وبما تتخض
عنه مشوراته الدائمة مع أصحابه حول كل القضايا والمواقف التى لم
يات الوحي فيها ببيان .

وهذه حقيقة لا تقبل المماراة .

يقول المستشرق « هايلتون جب » :

« بعد الهجرة قام في المدينة مجتمع قائم بذاته منظم على
قواعد سياسية تحت قيادة رئيس واحد .
« وقد كانت فكرة الرسول الثابتة عن هذا المجتمع الدينى
الجديد الذى أقامه ، أنه سينظم تنظيما سياسيا . ولن
يكون هيئة دينية منفصلة ومندرجة تحت حكومة
زمنية » (١)

(١) نقلا عن كتاب :

النظريات السياسية في الاسلام للدكتور ضياء الدين الرئيس .

ويقول المرحوم الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس (٢) :

« لم يكن هناك اية وظيفة من الوظائف التي يمكن أن يقال عنها أنها سياسية - من اعداد الاداة لتنفيذ العدالة ، أو تنظيم الدفاع ، أو بث للتعليم ، أو جباية للمال ، أو عقد معاهدات ، أو انفاذ سفارات الا كانت هذه الدولة تؤديها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فالمجتمع المسلم في المدينة اذن كان له دولة يقودها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . دولة لها جيش ، وراية ، وقوانين ، وضرائب ، وكل مقومات الدولة الحديثة . واتسع نطاق هذه الدولة ، وقام صرحها العظيم في عهد الخلفاء الراشدين . ثم فيما تلاه من عصور وعهود .

ولعلنا لا نجد ديننا ، ولا نظرية تتطلب طبيعتهما قيام الدولة كما نجد ذلك في الاسلام .

فالاسلام دين نظام ، ليس في نطاق المعاملات وحسب . بل وفي نطاق العبادات . . فالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، كلها تؤدي وفق نظام حازم وحكيم .

وهو لا يعنى بتنظيم الحياة في نطاقها الواسع فحسب ، بل وفي اضيق نطاق .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم معلما اصحابه وامته :

« اذا كنتم ثلاثة في سفر ، فأمروا احدكم » .

(٢) نفس المرجع السابق .

أى ، غليختر الثلاثة من بينهم واحدا يكون عليهم « امرا » ينظم
بمساهم ومسراهم .

كيف فتوقع من دين يعنى بالامارة بين ثلاثة الا يعنى بها بالنسبة
لجتميع كبير وامة عريضة . . !!

ولقد كان اصحاب الرسول رضوان الله عليهم على وعى كامل
بهذه الحقيقة ولهذا وجدناهم يتجه اهتمامهم بعد موت الرسول مباشرة
الى اختيار الخليفة ، حتى قبل تجهيز الرسول ودفنه !!

* * *

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك ان بناء « دولة
الاسلام » واستمرارها جزء من مهمته كنبى ورسول .

بل لعله كان يرى ذلك جزءا من مهام الانبياء والمرسلين ايضا . .
فعليه نزلت الآية الكريمة التى خاطب الله بها نبيه داود عليه السلام :

« يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس
بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضسلك عن سبيل الله » .

فالله سبحانه يخاطب « داود » نبيه بانّه خليفة فى الارض
يسوس امور قومه ، وينشر العدل ، ويحكم بين الناس بالحق . .
الملا يكون « محمد » عليه السلام كذلك نبى دعوة ، وقائد دولة وامة !!

والاسلام باعتباره « خاتم » الاديان ، و « صفوة » الشرائع ،
لا يمكن ان يحقق ذاته الا بارساء قواعد الدولة التى تحقق اهداف هذا
الدين الخاتم .

ومادام المجتمع البشرى بطبيعة تكوينه في حاجة الى دولة او
دول تنظم سلوكه وحياته ، فكيف يغفل الاسلام عن تلبية هذه الحاجة
الملحة والضرورية . . !!

بل ان الكتب التي ارسلها الرسول الكريم في السنة السادسة
الهجرة الى نفر من اباطرة المسالم يومئذ وحكامه ، وعلى راسهم
« هرقل » امپراطور الروم ، و « كسرى » فارس ، و « النجاشي »
امپراطور الحبشة ، و « المقوقس » حاكم مصر وغيرهم .

نقول ان هذه الخطوة من جانب الرسول كان لها مغزاها
السياسي بعد مغزاها الديني .

انها تدعوهم الى عبادة الله وتوحيده والدخول في دينه الخاتم ،
ولكن ، لعلها بعد هذا تشير الى ما كان الرسول عليه السلام يلقه
على الاسلام من اهل في اقامة « حكومة عالمية » تقوم على منهج الدين
وقيمه ومبادئه لا سيما بعد ان كشف الله له حجب الغيب يوم الخندق
فراى الاسلام يضيء بصري والشام والعراق وفارس والروم . . !!

لقد كانت هذه الرؤية لا الرؤيا . التي وقعت يقظة لا مئاما حين
كان عليه الصلاة والسلام يعمل مع اصحابه في حفر الخندق فاعترضتهم
صخرة عاتية ، فتعرض لها الرسول بمعوله وحين انصدع جبروتها
وطار شررها كبر الرسول ربه وحمده بصوت جهير ، فقد رأى نورا
يغمر جنيات الارض ، والقي في روعه انه نور الاسلام سيضيء البلاد
ويهدى العباد .

كانت هذه الواقعة في غزوة الخندق في السنة الخامسة من

الهجرة وكانت كتابته للإباطرة والملوك بعد ذلك بقليل في السنة السادسة للهجرة . . افلا نلمح علاقة بين الموقنين ؟

انه مادام الرسول كان رسول الله للعالمين ، وكان دينه شرعا للعالمين . فلماذا لا تكون النظم التي ارساها هذا النبي وهذا الدين منهجا للعالمين سواء كانت نظما سياسية ام اجتماعية ؟

لماذا لا يطمح الاسلام الى « حكومة عالمية » تلتف حول مبادئه وكتابه . . ؟

لقد تحققت نبوءة الرسول التي تنبأ بها يوم الخندق . . وخلال خمسة وعشرين عاما دانت الجزيرة العربية كلها للإسلام ودخلت تحت مظلة دولته الكبرى معظم بسلاذ وتخوم الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ثم توالى الفتح بعد ذلك حتى صارت القوة والزعامة الاسلامية طوال مائتي سنة هي القوة الاولى في العالم كله .

اجل — بين عامي ٦٥٠ ، ٨٥٠ ميلادية كانت الدولة الاسلامية اقوى واعظم دولة في العالم .

وفي اقل من ثمانين عاما شملت الفتوحات الاسلامية من الارض والبلاد اكثر من تلك التي ضمتها روما في ثمانمئة عام . . ! !

ولم تكن فتوحات الاسلام غاشمة ولا ظالمة ، بل كانت رحمة وهداية وسلاما . . كانت حروب تحرير وتمسدين . وليس ادل على ذلك من انه بعد تفكك الدولة الاسلامية ظل المسلمون قادة الفسك والعلم في العالم لمدة خمسة قرون .

كما أنها لم تكن فتوحات عنصرية ، فإن الكثيرين من أبناء الدول المفتوحة كانوا يصلون الى أعلى مناصب الدولة . وعندما ترك المسلمون اسبانيا - مثلا - لم يتركوها مهلهلة منهوبة . بل تركوها امبراطورية عظمى بفضل ما كانوا قد اسدوا اليها من حضارة وعمران وثقافة ..

اوكل ذلك ، ثم نقول : الاسلام دين لا دولة .. ! انن عمادا كان كل هذا الفتح العظيم والطود الشامخ ؟!

— ٤ —

لقد كانت تصرفات الرسول توميء الى رجل ينشر دعوة ويبني دولة فهو يشكل الجيوش ويجعل عليها امراءها ، وهو يعقد المعاهدات ، ويرسل السفارات ، ويجمع الضرائب - زكاة وجزية - وحين يغادر المدينة عاصمة الدين والدولة يختار امرا يخلغه فيها ويقوم اداريا وسياسيا ودينيا بكل مهام الرسول عليه السلام . ولقد قام الرسول في المدينة بكل مسئوليات النبي والحاكم ، واستمر ذلك من بعده بدءا من يوم انسقيفة ..

من أجل هذا ، اجمع المسلمون - اهل السنة ، والمعتزلة ، والشيعة ، والمرجئة ، والخوارج الاقلية ضئيلة عرفت باسم « النجدات » اجمعوا جميعا على وجوب نصب « الامام » اى قيسام « الدولة » التى ترعى شئون الاسلام والمسلمين .

والاسلام وان يكن دينا شرعه الله سبحانه الا انه فى تطبيقاته الانسانية يمثل « عقدا اجتماعيا » يتضمن قيام سلطة تفى بالتزامات هذا العقد ، وتسهر على تنفيذه .

والمبادئ والتنظيمات التي تلبي كل احتياجات الناس ، والتي
أثرها « الفقه الاسلامي » وتفسح في تبيانها تتطلب شرما وعقلا
وبداهة قيام « سلطة » تؤمن بهذا التراث وتلتزم باحترامه وتنفيذه .

والاسلام يقيس نوع السلطة بنوع قيمه ومبادئه ، فهو لا يقبل
اي سلطة تفرضها ظروف مجافية لمبادئه . بل لابد ان يتوفر لهذه
السلطة من العدل واحترام الشريعة ما يجعلها جديرة بكونها سلطة
اسلامية .

من أجل هذا عرف الفقهاء المسلمون رئيس الدولة المسلمة بأنه
« يقوم بأمر الحرب والسلم ، وتدبير الجيوش والسرايا وسد الثغور ،
وحماية الامة ، والاخذ من ظالمها لظلمها ، والقيام بكل مصالحها
ومهاها السياسية » .

ومن أجل هذا اجمع الفقهاء كما اسلفنا على وجوب قيام الدولة
المسلمة .

يقول ابن خلدون :

« ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه في الشرع
باجماع الصحابة والتابعين » .

ويقول حجة الاسلام الغزالي :

« الدين والسلطان توأمان » .

ويقول النسفي في عقائده :

« والمسلمون لابد لهم من امام يقوم بتنفيذ احكامهم ،
واقامة حدودهم ، وسد ثغورهم ، وتجهيز جيوشهم ،

وجمع الزكاة المفروضة عليهم ، وقهر المتلصصة وقطاع
الطريق ، واقامة الجمع والاعياد ، وقطع المنازعات
القائمة بين العباد .

ويقول الامام الغزالي أيضا مبينا حاجة الدين والدنيا الى الامام
اي الدولة :

« ونظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل اليهما الا
بصحة البدن ، وبقاء الحياة ، وسلامة قدر الحاجات من
الكسوة والمسكن والاقوات والامن ، ولعمري من أصبح
آمنا في سربه ، معانى في بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما
حيزت له الدنيا بخذا غيرها . »

« فلا ينتظم الدين الا بتحقيق الامن على هذه الضروريات
ومن قضى جميع اوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من
سيوف الظلمة ، وطلب قوته من وجوه الغلبة ، فنتى
يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاها الى سعادة الآخرة .
« . . . ان الدنيا والامن على الانفس والاموال لا ينتظمان
الا بسلطان مطاع . وهذا تشهد له اوقات الفتن . .
فما لم يتسدارك الامر بسلطان مطاع لدام الهرج وعم
الشغب وشمل القحط ، وهلك الناس وبطلت الصناعات
وصار كل من غلب سلب ، ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلم
ان بقى حيا ، والاكثرون يهلكون تحت ظلال السيوف .
ولهذا قيل : الدين اساس والمسلمان حارس . وما لا
اساس له فهو مهدوم ، وما لا حارس له فضايع » (١) .

(١) كتاب الاقتصاد في الاعتقاد .

وقال الماوردي :

« . . ويجب اقسامه امام يكون مسلطان الوقت وزعيم الامة ، ليكون الدين محروسا بسلطانه ، والسلطان جاريا على سنن الدين واحكامه » .

وقال الشهرستاني :

« ولا بد للكافة من امام ينفذ احكامهم ، ويقيم حدودهم ، ويحفظ بيضتهم ، ويحرس حوزتهم ، ويعبىء جيوشهم ، ويقسم غنائمهم ويتحاكمون اليه في خصوماتهم ، وينصف المظلوم وينتصف من الظالم ، وينصب القضاة والولاة في كل ناحية ، ويبعث القراء والدعاة الى كل طرف » . (١)

وقال الايجي صاحب المواقف :

« انا نعلم علما يقارب الضرورة ان مقصود الشارع فيما شرع من المساملات والمناكحات والجهاد والحدود والمقاصات واظهار شعار الشرع في الاعياد والجمعات . . . انما هو مصالح عائدة الى الخلق معايشا ومعادا . . . وذلك لا يتم الا بامام يكون من قبل الشرع يرجعون اليه فيما يعن لهم » (٢) .

ويقول الجرجاني :

« نصب الامام من اتم مصالح المسلمين ، واعظم مقاصد الدين » .

(١) نهاية الاتسدام في علم الكلام نقلا عن كتاب الفطريات السياسية الاسلامية . (٢) المرجع السابق .

ويقول ابن تيمية :

« يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين إلا بها ، فإن بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع بعضهم إلى بعض ، ولا بد لهم عند الاجتماع من الحاجة إلى رأس . حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » . « ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة . وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل ، وإقامة الحج والجمع والاعياد ، ونصر المظلوم وإقامة الحدود . . وكل ذلك لا يتم إلا بالقسوة والإمارة . « ولهذا روى « انسلطان ظل الله في الأرض » . . وكان السلف الصالح كالفضيل بن عياض ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهما يقولون :

« لو كانت لنا دعوة مستجابة لادخرناها للسلطان » . . (١)

— ٥ —

واجتماع المسلمين هذا على ضرورة قيام الدولة المسلمة مستمد مما انتظمه القرآن والسنة من آيات وتوجيهات ، ومن نهج الخلفاء الراشدين الذين قال الرسول عنهم :

(١) السياسة الشرعية في اصلاح الراعى والرعية •

« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من
بعدي . عضوا عليها بالنواجذ » .

كما انه مستمد بعد ذلك من حركة الاسلام خلال التاريخ الطويل
لها من القرآن ، فالقرآن مملوء بالآيات التي تدعو المسلمين
الى حكم الله .

والفعل — حكم جاءت مشتقاته في القرآن بمعنى « الحكومة » التي
تتقضى وتفصل وتقود .. وجاء بمعنى « الحكمة » .. وجاء بمعنى
الاحكام والانتقان .. وجاء بمعنى الغلبة والاقْتدار .. فلا يجوز الخلط
بين هذه المعاني ، ولا يجوز مثلا حمل آيات الحكم على معاني الحكمة
أو الاحكام ، أو الاقْتدار ، لان معنى الحكم فيها واضح ومبين .

من آيات « الحكمة » قوله تعالى :

« ويعلمهم الكتاب والحكمة — وما أنزل عليكم من
الكتاب والحكمة — آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة
« وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة — ادع الى
« سبيل ربك بالحكمة — ذلك مما أوحى اليك ربك
« من الحكمة — ولقد آتينا لقمان الحكمة — واذكرن مايتلى
« في بيوتكن من آيات الله والحكمة — وشهدنا ملكه
« وآتيناها الحكمة وغصل الخطاب » .

ومن آيات « الاحكام » والغلبة قوله سبحانه :

« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم

« الحكيم — فاعلموا ان الله عزيز حكيم — ولو شاء الله
« لاعنتكم ان الله عزيز حكيم — هو الذي يصوركم في
الأرحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم — ثم
« ادمهن يأتينك سعيًا واعلم ان الله عزيز حكيم —
« وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم — وهو
« القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير — وكلمة الله هي
« العليا والله عزيز حكيم . . »

في هذه الآيات الكريمة يتحدث القرآن عن الحكمة بمعناها . .
وعن الاحكام بمعناه . . وعن الغلبة والاعتدال بمعنيهما .

اما لفظ الحكم بمعنى القضاء والفصل وبمعنى الحكومة ايضا
فقد ذكره القرآن ستا وسبعين مرة (١) وحسبنا هنا ايراد بعض
الآيات التي تشير بوضوح الى ان الاسلام له دولته التي تحكم بما انزل
الله والتي تجعل العدل شرعتها ومنهجها .

يقول القرآن العظيم :

« انا انزلنا اليك الكتاب بالحق ، لتحكم بين الناس بما
أراك الله . . »

فالقرآن لم ينزل على قلب الرسول ليتعبد به المؤمنون فحسب

(١) المعجم المنهري لالفاظ القرآن الكريم لطيب الذكر المرحوم
محمد غزاد عبد الباقي .

بل وليكون — أولا — منها للحكم يحكم به الرسول امته المسلمة بما
أراه الله أي بما رسم له في هذا القرآن من سبيل وما قنن فيه من
قانون .

ويؤكد القرآن هذا الدور لرسول الله قائلا :

« فأحكم بينهم بما أنزل الله — وأن أحكم بينهم بما أنزل
الله ولا تتبع أهواءهم » ...

ثم يؤكد له ضرورة الالتزام بحكم الله فيقول :

« واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك » ..

وليس هذا الخطاب قاصرا على الرسول صلى الله عليه وسلم،
بل هو دعوة مفتوحة لكل مسلم يلي أمر المسلمين .

يقول الله تعالى :

« ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها ، واذا
حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل » ..

والامانات هنا لا تعنى تلك الودائع التي يستودعها بعضنا
بعضا فحسب بل تعنى — أولا — مسئولية الحكم التي هي امانة
أثمن الله عليها الحاكمين .

واداؤها الى اهلها يعنى العدل في تنفيذها والقيام بها ، كما
يعنى اشراك الشعب في هذه المسئولية بكل الوسائل التي تجعل
مشاركته في الحكم مشاركة فعالة وحقيقية .

والحكم بما أنزل الله وبما شرع لعباده ، وبناء الدولة التي
تلتزم هذا النهج كان من بين وظائف الرسول عليه السلام .

ولم ينزل الله كتابه لنلهو به . بل هو ينقل اليها حكم الله الذي ارتضاه للناس ، ولا يرضى بشيء بديلا عنه .

يقول سبحانه :

« والله يحكم لا معقب لحكمه » . .

ليس هناك من يفرض رايه على حكم الله مهما تكن عبقريته وقوته .

ويؤكد العلي الكبير هذا المعنى في هذه الآيات الكريمة :

« ذلكم حكم الله يحكم بينكم — ان الحكم الا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين — الا له الحكم — ان الحكم الا لله ، امر الا تعبدوا الا اياه — ان الحكم الا لله عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » .

ويرفض القرآن وينحض كل المتنيات على حكم الله وكل عدول عنه الى حكم وضعى مريج . فيقول :

« ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون — ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون — ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون » . .

ويوبخ القرآن اولئك الذين ينحرفون عن حكم الله الى حكم البشر « امحكم الجاهلية يبغون ؟ ! ومن احسن من الله حكما لقوم يوتنون ؟ ! » .

ويضع حدا فاصلا بين المؤمنين المخبتين الذين اذعنوا لحكم الله

وارتضوا تشريعه وقانونه ، وبين الضالين الذين عموا وصموا عما
أنزل الله من كتاب ..

فيقول عن الاولين :

« انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله
ليحكم بينهم ان يقولوا : سمعنا واطعنا » .

ويقول عن الآخرين :

« واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا غريق
منهم معرضون » .

ويعلم الرسول ان يقول لاولئك المعارضين والمعارضين :

« اغضير الله ابتغى حكما ، وهو الذي أنزل اليكم الكتاب
مفصلا » .

اجل .. كيف يبتغى المؤمنون حكما غير حكم الله وهو الذي أنزل
اليهم كتابا مفصلا ومحكما وتبياننا لكل شيء ، وارسل اليهم خاتم انبيائه
ورسله يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويدعوه ويدعوهم بقوله :
« وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله » .

ان هذه الآيات التي سلفت ، يكشف القرآن بها عن ان
للاسلام دورا غير هداية الناس ، هو دور الحكم والحاكم الذي
يحمي ذمارهم ، وينظم حياتهم عن طريق دولته التي يجب ان تقوم
وان تبقى ما بقي في الدنيا اسلام .

ودستور هذه الدولة مائل في كتاب الله ، وسنة الرسول ،
واجماع الامة ..

واجتماع الامة يتشكل وفق ما في القرآن والسنة من احكام .
« يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول
وأولى الامر منكم . فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله
والرسول ... »

والقرآن في الدولة المسلمة هو أبو القوانين فيها . وسنتحدث
عن هذا الموضوع ان شاء الله عند حديثنا عن شكل الدولة المسلمة
وكيف تنهض وتقوم .

اما الآن وقد تلونا الايات القرآنية التي تعلمنا انه لا بد للاسلام
من امام يحكم ودولة تقوم ، فلنتجه صوب السنة النبوية لنطالع رأيها
في هذه القضية .

- ٦ -

ونحن حين نطالع آيات القرآن الكريم واحاديث الرسول
الخاصة بقيام الدولة في الاسلام ، لا نلتقى بآية ولا بحديث يقول :
يا ايها الذين آمنوا اقيموا دولة او اتخذوا منكم اماما وحاكما ، تماما
كما لا تلتقى بآية تقول او بحديث يقول : يا ايها الذين آمنوا تنشقوا
الهواء ... !! ذلك ان القضية من البداهة بحيث لا تتطلب امرا بها
ودعوة اليها انما يتجه القرآن وتنتج الاحاديث النبوية مباشرة الى
الحديث عن شكل هذه الدولة ومقاييسها واخلاقياتها وعن
المسئوليات المتبادلة بينها وبين الامة .
ان قيام دولة في اى امة امر بدهى تتطلبه طبائع الاشياء
وتقسيمه سنن الاجتماع البشرى .

وهذا ما أدركه الامام على بغيرته ونكاته حين قال :

« لا بد للناس من امارة — برة كانت أو فاجرة .. »

« قيل : يا امير المؤمنين ، هذه البرة قد عرفناها ، فما بال الفاجرة .. ؟؟ »

« قال : يقام بها الحسدود .. وتؤمن بها المسبل .. ويجاهد بها العدو .. ويقسم بها الفيء .. »

فقيام الدولة ايا كان لونها امر ضروري بقدر ما هو بديهي .

وانما كان اهتمام القرآن والسنة بالنهج الذي تقوم عليه الدولة في الاسلام — أى بمميزات وخصائص وسمات الدولة المسلمة . فاذا قال القرآن للرسول « احكم بينهم » فانه يتبعها بقوله « بما أنزل الله » .. واذا قال له « لتحكم بين الناس » اتبعها بقوله : « بما أراك الله »

ومعنى هذا ان الاسلام ينشد نوعا معينا من الدول والحكومات . هو الذى يلتزم بتعاليمه ومبادئه وتقاليدته .

وتعالج احاديث الرسول الاكرم الموضوع بشمول ووضوح .

ولنبدأ بهذا الحديث العجيب .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من مات وليس له امام ، مات ميتة جاهلية » .

والمراد بالامام في الاسلام اذا اطلق ، « الحاكم » أى « الدولة »

غاي توكيد لدورها ، بل أى تقديس أكثر من هذا الذى نرى !!

لا يحق لاي انسان رشيد ان يعيش في الفلاة كالحر الوحشية

ليس له مجتمع يؤويه ولا دولة تحميه . . ومهما يببالغ المسلم في الفرار
بدينه من الفتن ، فلا بد أن يكون له انتماء يربطه بأمته ودولته . والا
عاش أبقا ، ومات . . كما قال الرسول . . مينة جاهلية .

أن الدين الذي يقول رسوله هذا الحديث لا يمكن أن يتجاهل
قيام الدولة . بل لابد أن تكون الدولة أصلا من أصوله الراسخات .

ثم لنطالع هذا الحديث للرسول عليه السلام :

« كفتت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء عليهم السلام .
كلما هلك نبي خلفه نبي . . وأنه لا نبي بعدى . وسيكون
بعدي خلفاء فيكثرون . . »

« قال أصحاب الرسول : فما تأمرنا ؟؟ »

« قال : أوغوا بيعة الأول . . . »

فهنا يحفظ الرسول الدولة المسلمة من الانشقاق والتصدع ،
ويبين أنها ثمرة « البيعة » و « الشورى » بدليل قوله عليه السلام
« أوغوا بيعة الأول » .

ولكأنما كان الرسول يقرأ ويطلع مستقبل الدولة المسلمة ،
وما مستعرض له من فتن واختناقات . بل لقد طالع هذا المستقبل
فعلا حين قال :

« الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم ملك بعد ذلك » .

يقول الصحابي راوي الحديث « لقد حسبنا خلافة أبي بكر ،
وخلافة عمر ، وخلافة عثمان ، وخلافة علي فوجدناها ثلاثين سنة » .

ويأمر الرسول باحترام بيعة الامة للخليفة الذي تختاره بكامل مشيئتها ويدعو الى رفض من نازعه الامر بغير حق وسلطان ويحكم بتجريمه بل يقتله . . يقول عليه السلام :

« من اتاكم وامركم جميع على رجل واحد يريد ان يشق عنصاكم او يفرق جماعتكم ، فاقتلوه » !!

ومرة اخرى نلنت النظر الى قوله عليه السلام « وامركم جميع » اي ان الامام القائم ثمره اجماع من الامة على تنصيبه واختياره . وتقوم الدولة بكل مسؤولياتها تجاه الامة .

يقول عليه السلام :

« كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . فالامام راع ومسئول عن رعيته . . . »

والحاكم المسام يكرس حياته لخدمة الامة واصلاح حالها وامرها وهو لهذا لا يغيب قط عن قضاياها ومشكلاتها . . بل لا يغيب عن حاجة اي فرد من افرادها .

يقول عليه السلام :

« من رلاه الله شيئا من امور المسلمين ، فاحتجب دون حاجتهم وخلقتهم وفقرهم احتجب الله تعالى دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة » . .

والحاكم عادل ومقسط .

« ان المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين — الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا »

والدولة المسلمة لا تخدع الأمة ولا تغشها ولا تعاملها بظاهر
جميل يخفى باطنا قبيحا .

يقول عليه السلام :

« ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو
غاشئ لرعيته الا حرم الله عليه الجنة » .

والحاكم المسلم وجميع ولاته على الاقاليم مسئولون امام الله ثم
امام الناس عن سلوكهم ، وعن مدى التزامهم بتعاليم الاسلام الحنيف
والحاكم مسئول من ولاته الذين يجب ان يختارهم وفق راي
الاسلام فيهم ، لا وفق هواه .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من ولي من امر المسلمين شيئا فولى رجلا وهو يجد من
هو اصلح للمسلمين منه ، فقد خان الله ورسوله
والمؤمنين » .

ويقول امير المؤمنين عمر بن الخطاب مؤكدا معنى الحديث :

« من ولي من امر المسلمين شيئا فولى رجلا لمودة او قرابة
بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمسلمين » .

يقول الامام ابن تيمية (1)

« ويجب على كل من ولي شيئا من امر المسلمين ان
يستعمل فيما تحت يده في كل موضع اصلح من يقدر

(1) السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية .

عليه . ولا يقدم الرجل لكونه طلب الولاية ، بل يسكون ذلك سبب المنع .

« فان عدل عن الاحق الاصالح الى غيره ، لاجل قرابة بينهما او صداقة او موافقة في بلد او مذهب او طريقة او جنس كالعربية والفرسية والتركية والرومية ، او لرشوة يأخذها منه ، او غير ذلك من الاسباب ، او لضغن في قلبه على الاحق والاصالح ، او عداوة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ، ودخل فيما نهى الله عنه بقوله تعالى : يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون .

« . . ان الوالى الذى يؤدى الامانة مع مخالفة هواه يثبته الله ويحفظه في اهله وماله بعده . . والمطيع هواه يعاقبه الله بنقيض قصده ، فيذل اهله ويذهب ماله .

« . . قال بعض الناس لامير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : يا امير المؤمنين اغفرت (افقرت) افواه بنيك من هذا المال وتركتمهم فقراء لا شيء لهم ، وكان في مرض مسوته . فقال : ادخلوهم على ، فادخلوهم فلما رآهم فرغت عيناه ثم قال : يا بنى ، والله ما منعتكم حقا هو لكم وما كنت لأخذ اموال الامة فادفعها اليكم . . وانما انتم احد رجلين « اما صالح ، فالله يقولى الصالحين . . واما غير صالح فلا اخلف لكم ما تستعينون به على معصية الله . .

ثم يقول ابن تيمية رضى الله عنه :

« فبارك الله له في ولده واغناهم حتى ان احدهم تبرع في

أحدى الغزوات مع الروم بمائة فرس للمجاهدين .
« حدث هذا من عمر بن عبد العزيز وهو خليفة المسلمين
من أقصى المشرق ببلاد الترك الى أقصى المغرب بالاندلس
. . . ومن جزيرة قبرص وثغور الشام الى أقصى اليمن . .
ولقد كان نصيب كل من أبنائه من تركته وميراثه أقل من
عشرين درهما .

بينما كان هناك أحد الخلفاء ، اقتسم بنوه تركته فكان
نصيب كل فرد منهم ستمائة الف دينار . . ومع ذلك فقد
كان بعض هؤلاء الأبناء يتكفنون الناس بعد ما أصابهم
من فقر وفاقة « . . .

أجل — الحاكم وولائه مسئولون عن الأمة ثبات وجميعا . .
والأمانة والتعفف هما مقياس صلاحية الحاكم والولاة . والذين
تصلهم بأموال الناس ووظيفة ومنصب فإن مسئوليتهم عن الأمانة تفوق
كل تقدير . .

ان الذي يرى الرسول وهو يواجه خيانة من مال الشعب أوسفها
في انفاقه ليرى أمرا عجبا .

فهذا الرسول الرحيم العظيم الذي طالما التمس المعذرة ورجا
رحمة الله للخطائين يتف امام الخيانة أو التجوز في مال الأمة وكأنه
لا حيلة له أبدا . ولأول مرة نراه يستحي أن يسأل ربه المغفرة لأثم .
فلك لان الأثم هذه المرة خائن ، خان مال الأمة وهو عند الله اثم مبین .

أهدى رفاعة بن زيد للرسول عليه السلام خادما . . وفي غزوة

وادی القرى أصابه سهم وهو ينزل رحل الرسول ، فأقبل الصحابة على الرسول يعزونه ، ويقولون : هنيئا له يا رسول الله لقد مضى شهيدا فأجابهم الرسول قائلا :

« وما يدريكم . . ؟ ان الشملة التي اخذها من المغانم يوم خيبر ، لتشتعل عليه نارا » . . . !!

شملة . . شمله تساوى درهما او بضعة دراهم يطارد اثمها آخذها حتى وان مات شهيدا .

الا انه لولاء للامانة ليس له نظر . . !!

ان كل قرش يناله وال او موظف او حاكم خلسة او جهرة دون ان يكون له فيه حق لهو غلول وخيانة .

يقول الرسول عليه السلام :

« من استعملناه على عمل ، فرزقناه رزقا ، فما اخذ بعد ذلك فهو غلول » .

ان العلاقة بين الوالى والامانة تبلغ في احاديث الرسول عليه الصلاة والسلام مبلغا عظيما من التقديس . . فهو — مثلا — يرفض رفضا مطلقا ان يقبل الوالى او الموظف هدية — مهما تكن — جزاء عمل اذاه يدخل في نطاق واجبات ولايته ووظيفته . ان هذا يفتح بابا خلفيا للخيانة والتفريط في الحقوق العامة .

وقف عليه السلام خطيبا ذات يوم وقال :

« اما بعد ، فانى استعمل الرجل منكم على عمل مما ولانى الله .

« خيأتى ويقول : هذا لكم ، وهذا اهدى الى ..
هلا جلس في بيت ابيه حتى تأتيه هديته ان كان صادقا .
« والله لا يأخذ احد منكم شيئا بغير حقه الا لقي الله
يحملة يوم القيامة .. اللهم قد بلغت « ... !!

ان الرسول ليتحدث عن « امانة الحكم » باهتمام عظيم ، ويلقى
تعاليمه الهادية المضيئة الى الحكام ، والولاة ، والقضاة ، والى كل من
يحمل مسئولية في الدولة .

يقول عليه السلام عن الامارة :

« انها امانة ، وانها يوم القيامة خزي وندامة ، الا من
أخذها بحقها ، وادى الذى عليه غيرها » .

ولان الحكم « امانة » ومسئولية عظمى لا يتهالك عليها الا جاهل
يفداحتها ، ولقد كان الرسول عليه السلام يرفض ان يولى احدا ولاية
او امارة يسألها ويرنو اليها .

ذهب احد اصحابه يوما يسأله ان يولىه احدى الولايات ، فقال :
« انا والله لا تولى هذا الامر احدا يسأله او احدا يحرص
عليه » .. !!

ويوصى عبد الرحمن بن سمرة قائلا :

« يا عبد الرحمن ، لا تسأل الامارة ، فانك ان سألتها
وكلت اليها .. وان أعطيتها بغير مسئلة أعنت عليها » (١)

(١) راجع كتابنا - كما تحدث الرسول -

قد يكون رفض الحكم أمرا ميسورا للرجل الورع ، لكن الصعب
بالنسبة اليه هو تقلد الحكم ، وتحمل مسئولياته الشداد .

ومن المريح لك ان تضع عن كاهلك الحمل الثقيل الذي يؤود
الاشداء من الرجال ، ولسكن الصعب جدا ان تحمله وتمضى به
السنوات الطوال ..

لذلك لا نجد المتهافتين على السلطة الا من بين النهمين لشهوات
الدنيا من منصب ومال وجاه والفاغرين عقولا وأقنعة .

ولعل خير تعبير عن هذه الحقيقة يتمثل في قول الامام على
كرم الله وجهه :

« اما والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لولا ما اخذ الله
على العلماء الا يقاروا على كظلة ظالم ، وسغب مظلوم ،
لاقيت حبلها على غاربها ، وسقيت آخرها بكأس اولها ،
واللغيتم دنياكم هذه ازهد عندي من عفة عنز » .. !!

وكان يوما يخصف نعله ومعه ابن عمه عبد الله بن العباس ،
فسأله الامام على :

— ما قيمة هذه النعل ؟؟

قال ابن عباس : لا قيمة لها ..

قال الامام : والله لهي احب الي من امرتكم ، الا ان اقيم حقا ،
او ادفع باطلا .. !!

* * *

واختيار الدولة لولايتها يجب ان يتم وفق مقاييس الاسلام .
المتثلة في ان يكون الوالى كفوًا وعدلا وصادقا وأمينًا . . ولاية ينصحون
الدولة ولا يفشونها ، يواجهون الحاكم ولا يتملقونه . يخلصون للحق
ويجعلون ولاءهم له من دون الناس .

يقول الرسول عليه السلام :

« اذا اراد الله بالامير خيرا جعل له وزير صدق : ان
نسى ذكره . . وان ذكر اعانه . .

« واذا اراد به غير ذلك ، جعل له وزير سوء : ان نسى
لم يذكره . . وان ذكر لم يعنه » .

ان اختيار الولاة الاكفاء من صالح الحاكم قبل ان يكون من
صالح الامة ، والحاكم الذكى ، ، والوالى الذكى ايضا هو الذى لا يبيع
دينه بدينه غيره . .

ان الدولة تقف بكل مؤسساتها على الهوة الفساغرة والمنزلق
الوعر اذا هى اسندت امورها لغير الاكفاء والامناء . . واذا هى آثرت
المنافقين والجبناء .

واذا كان اختيار الولاة الصالحين واجب الحاكم ، فان اختيار
الحاكم الصالح واجب الامة .

وهذا ينقلنا الى الحديث عن شكل الدولة المسامة وكيف تتشكل
وتقوم .

* * *

- ٧ -

إذا القينا نظرة على المسالم حوالينا الذيننا الدولة في كل بلد انعكاسا للمبادئ والنظريات السياسية التي يمارسها ذلك البلد . . وتتحكم الاوضاع الاقتصادية الى حد كبير في تشكيل نوعية الدولة ، ورسم خصائصها .

والدولة المسلمة لا تخرج عن هذه القاعدة . فهي انعكاس لمبادئ الاسلام وقواعده وخصائصه .

وأول ما يواجهنا ونحن نتحرى هذه الخصائص والمبادئ ، مبدأ الشورى . .

فالاسلام دين الشورى بكل ما تحمله الكلمة من معنى وشمول . وبالتالي فان شكل الدولة القائمة باسمه المستظلة برأيته لا بد ان يكون « شوريا » وقد تنزل القرآن عنى الرسول يأمره امرا واضحا وواجبا ان يدبر أمور أمته عن طريق الشورى فيما لم يأت القرآن فيه بحكم صريح .

قال الله سبحانه وتعالى لنبيه :

« فيما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت غظا غليظ القلب لا نفضسوا من حولك . غاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الامر . . فاذا عزمت فتوكل على الله » .

ويلفت الامام الرازي انظارنا الى معنى رائع تعطيه هذه الآية الكريمة . ذلك انها نزلت في اعقاب « غزوة احد » تلك الغزوة التي لم يكن النبي يرى فيها الخروج من المدينة للاغاة قريش خارجها . بيد.

أن الاغلبية من أصحابه رأوا غير ما رأى ، فنزل النبي على رأيهم .
وخرج على رأس جيشه للقاء جيش الشرك ودارت الحرب عند جبل
أحد . وحدث فيها ما حدث للمسلمين من محن شداد .

في اعقاب هذا الذي حدث نزلت الآية الكريمة تقول للنبي عليه
السلام :

« وشاورهم في الامر » .

أى لا تجعل ما ظهر من خطأ رأيهم سبباً لتجنبك الشورى ، فإن
الخطأ مع الشورى أسلم من الصواب مع التفرد بالرأى . . . !!

وهذا الموقف بين الله ورسوله لا غرابة فيه ولا عجب ، مادام
الرسول إنما بعث ليعلم الناس ويهديهم سواء السبيل . . ان سواء
السبيل هنا وفي هذا المجال هى الشورى التى لا تعسرف الملل ولا
الاستعلاء .

أجل . . نزل الوحي عليه بعد ما حدث له ولعمه حمزة ولأصحابه
بسبب الشورى ما حدث . نزل ليأمره بالمزيد من الشورى . . . !!

ولقد حنق الرسول الكريم الدرس الذى لقنسه الوحي اياه ،
فعاث يقندس الشورى فى كل امر ، ويرسخ ذلك فى روع أصحابه .

فيقول لهم :

« ما تشاور قوم قط الا هدوا لأرشد أمرهم » .

ويصفه صاحبه أبو هريرة رضى الله عنه فيقول :

« لم يكن أحد أكثر مشسورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولقد مضى سلوك الرسول على هذا النهج من الاهتمام بالشورى واخضاع كل قراراته لها حتى في أشد المواقف وأكثرها حرجا وتجهها . . .

ولنضرب لهذا مثلا آخر :

في غزوة « الخندق » وهي تكاد تكون أخطر الغزوات التي واجهها الرسول والمسلمون . إذ أقبلت قريش ومن تبعها من أعراب كنانة وتهامة في عشرة آلاف مقاتل شديدى المراسم ومعهم يهود بنى النضير . ومن الداخل كان هناك يهود بنى قريظة نقضوا عهدهم مع رسول الله وانضبوا الى الغزاة .

ويكفى في تصوير هذا الموقف الريب ان نستمع لكلمة القرآن عليه :

« اذ جاءوكم — اى الاعداء — من غوتكم ، ومن اسفل منكم
« واذ زاغت الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر ،
« وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا
زلزلا شديدا » . . !!

في هذا الموقف الصاصق رأى النبى ان يقتل من عند مهاجميه وذلك بان يصرف « غطفان » عن هذه الحرب وعن حلفها مع قريش . وفكر عليه السلام ان يرسل الى قائدى غطفان ، ويعرض عايبها لثك ثمار المدينة وغلقتها على ان ينسحبا من الجيش المهاجم ويرجعا بقومها

وفي هذا الهول لم ينس الشورى ، فعرض الأمر على سادة
الأوس والخزرج في المدينة فابوا هذا الصلح واعتبروه اذلالا لهم
وهوانا فنزل عليه السلام عقد رأيهم مسلما امره الى الله ومترقبسا
بركة الشورى . . ولقد كانت مباركة حقا ، فقد هزم اليأس جيش
قريش وحلفائها ، وسخر الله ريحا وعواصف اقتلعت خيامهم واطفأت
نارهم وكفأت قدورهم وأذهلتهم عن أنفسهم فصاح فيهم «أبو سفيان»
صيحة الفرار والخذلان واليأس وانقلبوا الى مكة صاغرين .

* * *

وكان عليه السلام يقول لابي بكر وعمر :

« لو ذهبتما لرأى ما خالفتكما » .

ليس احتراما للشورى وحسب . بل ولأن الشيخين أصبحا
بصوتيهما يشكلان اغلبية تجاه الصوت الواحد ، وان يكن صوت
الرسول . . . !!

ولقد جعل الله سبحانه احترام الشورى من ائمن خصال
المؤمنين وصفاتهم . قال تعالى :

« وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا ، وعلى ربهم
يتوكلون . . والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش ،
وإذا ما غضبوا هم يغفرون . . والذين استجابوا لربهم
واقاموا الصلاة ، وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم
ينفقون » . .

ولقد أخذ الخلفاء الراشدون بواجب الشورى في حزم ويقين .
ويحدثنا « ابن القيم » نقلا عن التابعى الكبير « يمين بن مهران »
أنه قال :

« كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب
الله تعالى ، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به . . . وإن
لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم . فإن وجد ما يقضى به قضى به . فإن أمياه
ذلك سأل الناس : هل علمتم أن رسول الله قضى غيبه
بقضاء . وربما قام إليه القوم فيقولون : قضى فيه بكذا ،
وكذا . . . فإن لم يجد سنة منها رسول الله جمع رؤسائه
الناس لاستشارهم . فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به
« وكان — عمر — يفعل ذلك . . . » (١)

محكومة أبى بكر وعمر لم تكن كما يتصور البعض حكومة
« مستبد عادل » . . . ولقد عرضت لنحوض هذا الرأى فى مقدمة كتابى
« وجاء أبو بكر » ، وقلت : أن الذين يرون فى أبى بكر وعمر مستبدين
عادلين إنما يجانبون الصواب .

أولا ، لانهما لم يكونا مستبدين ساعة من نهار .

وثانيا ، لانه ليس هناك شيء اسمه « المستبد العادل » .

فالاستبداد والعدل ضدان لا يجتمعان ونقيضان لا يلتقيان . وإن

(١) اعلام الموقعين ج ١ .

احدهما ليختفى نور ظهور الآخر ، لان ايسط مظاهر المعدل ان ياخذ كل ذى حق حقه . . واذا كان من حق الناس — وهذا مقرر بداهة — ان يختاروا حياتهم وحكامهم ، ويقرروا مصايرهم ، فان ذلك يقتضى في نفس اللحظة ولنفس السبب اختفاء الاستبداد .

ولقد كان « ابو بكر ، وعمر » رضى الله عنهما على بصيرة من هذا . وعلى الرغم من انها والامة معها كاتا خاضعين خضوعا مطلقا لما انزل الله من كتاب فقد اتاحا للمسلمين كل فرص المناقشة والمعارضة والاختيار .

ربما يذهب الظن بالبعض الى ان « ابا بكر ، وعمر » لم يكونا حاكمين ديمقراطيين لانه لم يكن بجوارهما تلك المؤسسات الديمقراطية الحديثة من برلمان ونستور ومعارضة وصحافة حرة .

بيد ان وضع المسألة على هذا النحو يشكل خطأ كبيرا . .
وانما يستقيم الفهم اذا نحن اجبنا عن هذا السؤال :

— هل كان غياب هذه المؤسسات الديمقراطية التي عرفها العالم حديثا ، هل كان غيابها عن الدولة المسلمة يومذاك راجعا الى كفران الخليفتين بهذه المؤسسات ؟!

والاجواب بيقين : لا — وغياب هذه المؤسسات لا يعنى اكثر من كونه تعبيرا عن نظم ذلك العصر البعيد في جزيرة العرب بل وفي معظم بلاد العالم منذ الف واربعمئة عام .

لقد حقق الخليفتان على اوسع مدى الجوهر الحى للديمقراطية

من خلال ايمانها العميق بكرامة الانسان ، ومن خلال الائتسكال
والتطبيقات التي كانت تلائم عصرهما .

● فاذا كانت الدولة المسلمة في عهدهما لم تشهد قيام معارضة
برلمانية منظمة لفقدان ذلك في بيئتهما وعصرهما ، فان المعارضة
نفسها كانت تمارس بأسلوب فعال وعميم .

● واذا كانت الدولة يومئذ لم تشهد قيام برلمان يراقب الحاكم
ويشرع القوانين ، فان الشورى يومئذ كانت شمعة من شمائر
الله ، وكانت حقا مقدسا للجماعة كلها .

● واذا كان التطور يومئذ لم يهيء قيام صحافة حرة ، فان الكلمة
الصادقة الشجاعة كانت على كل لسان . يصفى الخليفة اليها ،
ويثيب عليها . . !!

ولو ان الخليفتين العظيمين « ابا بكر ، وعمر » يحكمان في
عصرنا هذا لأعطا التجربة الانسانية في النظام الديمقراطي الرشيد
كل احترامهما ، ولانتفعا بها الى ابعده مدى ، ولاخذا من اشكالها
الحديثة ما يحقق جوهرها ويعبر عن خصائصها .

صحيح ان ذلك لم يكن سيتم بصورة مطلقة . بل كان سيتم
داخل ايمانها المطلق بالدين الذي آمنوا به واتبعوه . . على انه مع
وجود هذا التحفظ لن ينقص ذلك من قدرهما كحاكمين ديمقراطيين .

ذلك ان اى حاكم ديمقراطى انما يعمل داخل حدود الدستور
العادل القائم في دولته .

وأبو بكر وعمر كانا يعملان داخل حدود الدستور القائم في
تولتهما . .

لقد كان للقرآن في أمتهم من الولاء والاحلال والهيمنة أكثر مما
للدساتير في كل دول الدنيا .

ولقد تضمن القرآن العظيم مزيتين من أعظم مزايا الديمقراطية:
اولاهما — انه جعل الشورى واجبا مفروضا في دولة الاسلام .
وثانيتهما — انه لم يلزم بطاعة احكامه واعتناق مبادئه الا من
يقره ويختاره ويؤمن به . . . اي بلغة عصرنا الحديث : « من يقترح
عليه بالموافقة » !!

أما الآخرون الذين لم يؤمنوا به من أهل الكتاب — يهود
ونصارى — فلم ان يعيشوا وفق عقائدهم ، ويختاروا أسلوب
حياتهم .

صحيح ان القرآن « دستور » لم يضعه الشعب ، ولكنه
دستور رضىه الشعب ، وآمن به واقتنع عليه ، واستشهد في سبيله
غالمسلمون الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وساروا
معه آمنوا بأن القرآن وحى من عند الله وعليهم طاعته ، ولم يكرههم
احد على الايمان به .

ولقد حمل « الصديق ابو بكر » بعد الرسول مسئولية قيادة الامة
وفق هذا الايمان .

ثم حمل « الفاروق عمر » المسئولية بعد أبى بكر وفق هذا
الايمان أيضا .

واذن فالمعيار الصحيح الذى يوزن به حكمهما وديمقراطيتهما هو مدى احترامهما لهذا القرآن . . لهذا الدستور ، الذى آمن به المسلمون واختاروه تاترنا ومنهجنا لحياتهم .

* * *

ولقد تحدث الفقهاء طويلا عن كون الشورى ملزمة أم غير ملزمة اى هل ينتهى دور الشورى عند ابلاغ الخليفة او الحاكم بها ثم له بعد ذلك ان يأخذها وأن يرغبها . . وبهذا تكون غير ملزمة . . لا أم انها ملزمة وواجب على الحاكم الاخذ بها .

وعندى انها ملزمة ، ثم ملزمة ، ثم ملزمة . . ولو لم تكن كذلك لما كان من ورائها جدوى ولا فائدة . .

لانه اذا كان المراد من الشورى تقليب وجهات النظر وصولا الى الصواب ، فان فى الوحي غناء عن هذه المحاولة . ولن يعقل ان يتخلف الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موقف خطير كموقف الحرب فى غزوة احد وغيرها .

واذا كان الغرض من الشورى مجرد ترضية شكلية للمسلمين فان فى ذلك احباطا وتثبيطا ، بل واهانة للشورى وللمستشارين يجلب عنها مقام الرسول .

اذن يتعين ان يكون المراد من الشورى تمكين الامة من حقها فى ان يكون لها رأى محسوب فى تقرير مصايرها ، ويكون هذا الموقف بين الرسول والمسلمين مقصودا لتدريب الامة على يد رسولها وقائدها . . تدريبها على ممارسة حق الشورى الذى هو من اهم واجل حقوقها .

ثم ان مواقف الرسول وخطبائه من الشورى تنحصر الراى
المقاتل بعدم الالتزام . . .

ان الرسول الذى كان معه الوحي يصبحه ويمسكه ، امره الله
واوجب عليه ان يشاور اصحابه . . . وراينا كيف خضع للشورى في
اشد المواقف هولا وضراوة .
* * *

ولكن ماذا تعنى « الشورى » بلغة عصرنا الحديث الذى
نعاشه ولا نستطيع .نه فكاكا . وقديما قيل ، ولعله حديث نبوى .
« الناس بزمانهم ، اشبه منهم بأبائهم » .

ما الشكل الذى يجب على الدولة المسلمة ان تكونه وفقا لمبدأ
الشورى ، ومتابعة لروح العصر . . . ١٤

هل يكفى اليوم ان يكتفى الحاكم بمشاورة اهل الحل والعقد ،
والشعب هناك تابع في مسكنة وضياع كالمتعذر الضير . . . ١٤
ومن هم اهل الحل والعقد . . . ١٤

ان هذا السؤال يرغب كل تجاهل له ، ويدحض كل جبن عن
مواجهته .

وعندى ان المفهوم الحديث للشورى التى زكاهها الاسلام هى :
الديمقراطية البرلمانية . . .

ان ينتخب الشعب نوابا عنه يمثلون ارادته ومشيئته ،
ويختارون او يختار الشعب كله معهم الحسك الذى يرأس الدولة
ويقودها . . . ويكون هؤلاء النواب حراسا على حقوق الامة لدى الدولة

يؤيدون الحاكم اذا صلح ، ويقاومونه او يعزلونه اذا زاغ وانحرف .
وهؤلاء النواب عندي هم « اهل الحل والعقد » لا سيما اذا
طعم المجلس النيابى فى امة ما ببعض الكفايات المتخصصة ولو
بالتعيين المحدود .

وهذه الديمقراطية تفتح نراعيها للمعارضة داخل المجلس
وخارجه عن طريق البرلمان والصحافة وكل وسائل الاعلام ، فان
الديمقراطية بلا معارضة تعنى الديمقراطية بلا ديمقراطية . . . !!

وقديما قلت :

« ان افضل علاج لاخطاء الديمقراطية ، هو المزيد من
الديمقراطية » . . .

هذه حقيقة نود للمستمكن بالدولة الاسلامية ان يعسوها
جيذا . . فلا يقوان احدهم : نظام دولتى الشورى ثم يمضى !! لا بد من
ترجمة هذه الكلمة الى منهج سياسى مفصل . .

ولقد انضى بى البحث الى ان الشورى هى اليوم «الديمقراطية
البرلمانية» ولا تزيد . .

وان يكون ثمة حرج ولا بأس ان نحن اضفنا الى تراثنا
السياسى بعض النظم السياسية المعاصرة ، فان مجرد استخدام
الاسلام لها وتدنيرها بجوهر مبادئه سيجعلها اسلامية ، كما اصبحت
بعض الكلمات الاجنبية فى القرآن عربية بمجرد استخدام القرآن لها .
ان الحكم فى الاسلام ليس حكما مطلقا ، ولا تسلطا وقهرا .
ولكنه حكم شورى . حكم ديمقراطى بأصدق معانى هذا التعبير .

وهو في نفس الوقت عقد بين الله والحاكمين ان ينشروا الايمان
ويقيموا العدل ، ويكونوا امناء على مصالح الناس ومصايرهم .

* * *

وبالتفسير الذي اسلفناه للشورى ندرك في وضوح ان الحاكم
ليس ملاكا يتنزل على الناس من السماء . . انما هو بشر ، ومواطن
يختاره الشعب بكامل حريته ومحض ارادته ليحفظه ويقسوده وفق
الدستور والقانون .

ورئيس الدولة في الاسلام ، ليس من يشغل منصبه بالتعيين
ولا بالوراثة ، ولا بالعهد الذي لا تقره الامة وقرضاه .

فلك ان الامامة لا تنعقد لاحد الا بالاختيار والاتفاق .

قال علماء الفقه « الامامة عقد » غالبة شرط اساسي لقياس
رئيس الدولة . . اذ العقد يكون دائما بين طرفين ، والطرف الاول
لعقد الامامة هو الامة (1) .

يقول البغدادي في كتابه « اصول الدين » :

« قال الجمهور الاعظم من اهل السنة ومن المعتزلة ومن
الخوارج ان طريق ثبوت الامامة هو الاختيار من الامة » .

ولهذا نجد ان الامام عندما يريد ترك الامامة فليس ثمة من يملك
حق امفائه سوى الامة ، وهذا يدل على انها هي التي تملك حق
توليته . هذه نظرية الاسلام .

(1) النظريات السياسية الاسلامية .

فالامامة او الخلافة هي حق الامة ، والامة في الاسلام هي مصدر السلطات . . وهي مجموعها او عن طريق نوابها المنتخبين منها التي تختار رئيس الدولة الذي لن يكون اكثر من وكيل للامة بصرف امورها وشؤونها .

وقد يبدأ اختيار الامام من اهل عاصمة البلاد التي سيحكمها ، ولكن ذلك لا يكفي ، بل يتبعه بيعة الامة كلها بنفسها او بنوابها .

يقول الماوردي (١) :

« وليس لن كان في بلد الامام على غيره من اهل البلاد فضل مزية . . وانما صار من يحضر ببلد الامام متوليا لعقد الامامة عرفا لا شرعا لسبق علمهم بموته ، ولأن من يصلحون للخلافة في الاغلب موجودون في بلده » .

ويقول ايضا :

« ان عقد الامامة عقد مراعاة واختيار ، لا يداخله اكراه ولا اجبار » .

وهناك تعريف رائع للامام قاله الامام « احمد بن حنبل » عندما سئل عن معنى قول الرسول عليه السلام : من مات وليس له امام مات ميتة جاهلية - فقال احمد :

« أتدرى من الامام ؟؟

« الامام هو الذي يجمع عليه المسلمون . كلهم يتسول : هذا امام » . .

(١) الاحكام السلطانية .

ولابد لتوضيح هذا الامر من الرجوع الى عهد الخلفاء الراشدين
لتوضيح بعض ما عساه ان يبهم علينا .

فالخليفة الاول « أبو بكر الصديق » رضى الله عنه تم اختياره
لا تعيينه . اذ لم يعهد الرسول لاحد بالخلافة من بعده — وفي هذا
اشارة واضحة الى انه عليه السلام احتفظ للامة بحقها في الاختيار .

تمت الخلافة لابي بكر بالبيعة من بعض المسلمين يوم السقيفة
ومن بقيتهم في اليوم الثاني ، ثم توالى البيعة من الأتباع . . صحيح
أن « عمر بن الخطاب » هو الذى بدأ بالبيعة وصمم عليها . ولكن
ذلك لا يعنى انها كانت بيعة فرد بل كانت بيعة امة . بيعة المهاجرين
والانصار الذين كانوا قد بايعوا الرسول من قبل وأزروه ونصروه .

يقول ابن تيمية فى كتابه « منهاج السنة » .

« لو أن سر وطائفة معه بايعوا ابا بكر ، وامتنع سائر
الصحابية عن البيعة لم يصر أبو بكر اماما بذلك — وانما
صار اماما بمبايعة جمهور الصحابة الذين هم أهل القدرة
والشوكة » . .

وكذلك يقول الامام الغزالي : (١)

«لولم يبايع ابا بكر غير عمر، وبقي كافة المسلمين مخالفين
او انقسموا انقسامًا متكافئًا لا يتميز فيه غالب عن مغلوب
لما انعقدت الامامة » .

(١) الرد على الباطنية — نقلًا عن النظريات السياسية
الاسلامية .

وأمر المؤمنين « عمر » نفسه يدرك ذلك ويحض الأمة على أن تحتفظ بحقها في الاختيار . . وفي الخطبة الشهيرة التي ألقاها عقب حودته من موسم الحج قال :

« . . فمن بايع رجلا من غير مشورة المسلمين ، فإنه لابيعة له هو ولا الذي بايعه » .

* * *

فإن عهد الامام القائم بالأمر لآخر من بعده — كما فعل أبو بكر مع عمر — فلا بد من توافر شروط الامامة فيمن يعهد ويؤمن يعهد اليه من امانة ونزاهة وكفاءة وورع واخلاص . . ثم لابد من توثيق هذا العهد برضاء الأمة أو الاغلبية منها واقتراره .

أما توريث ابن أو قريب غير صالح للامامة ، وليس معه من شروطها وصفاتها شيء ، الا ما يصله بالموصى من قرابة أو صهر ، فهذا مناف لروح الاسلام ووجهته .

يقول ابن خلدون (٢) :

« وأما أن يكون المراد بالعهد حفظ التراث على الابناء فليس من المقاصد الدينية ، وينبغي تجنبه خوفا من العبث بالمناصب الدينية » .

وعلىنا أن ندرك جيدا أن اختيار ابي بكر لعمر لا يعنى فساد العامل الديمقراطي في اختيار الخليفة .

(٢) المقدمة

غابو بكر اختار عمر لا بصفته الشخصية ، بل بوصفه خليفة
نبوا منصبه هذا باقتراع الامة عليه واختيارها اياه ، فكأنه نقل بيعة
الامة منه الى من اختاره . . ثم انه اختار اصالح المسلمين لهذا
المنصب في تلك الظروف . . ثم انه قبل اختياره استئثار جمهرة
الصحابة وقادتهم .

يقول الطبرى في تاريخه (١) :

« ان ابا بكر لم يكتب عهده لعمر الا بعد ان استئثار كبار
الصحابة وهم قادة الراى وموضع ثقة الامة فائتوا كلهم
على عمر . وقال عثمان بن عفان : [اللهم ان علمى به
ان سريرته خير من علانيته ، وان ليس فينا مثله]

« ولما اتم استئثاره اشرف على الناس فقال لهم :
[اترضون بمن استخلف عليكم . . ؟] فانى ما الوت من
جهد الراى ، ولا وليت ذا قرابة ، فقالوا سمعنا واطعنا »

ثم ، وهذا هو الاهم فان جميع المسلمين في شتى الانحاء وافقوا
يومئذ على تنصيب عمر خليفة ولم يقم احد بالاعتراض مع قدرتهم على
ذلك لو ارادوا بدليل ما حدث في اواخر عهد عثمان . . وكذلك لم تكن
بيعة « عثمان » من الستة الذين اختارهم « عمر » لترشيح الخليفة
واختياره . بل كان . . وهنا نترك الحديث لابن تيمية الذى يقول : (٢)
« ان عثمان لم يصر اماما باختيار بعضهم ، بل ببسايعة
الناس له . وجميع المسلمين بايعوا « عثمان بن عفان » ولم

(٢) منهاج السنة .

(١) الجزء الاول :

يتخلف عن بيعته احد . . قال الامام احمد : ما كان في القوم
من بيعة عثمان كفت باجماعهم . والا لو قدر ان عبد
الرحمن بن عوف بايعه ثم لم يبايعه على ولا غيره من
الصحابة اهل الشوكة لم يصر اماما .

« ثم ان ابن عوف حلف انه اقام ثلاثا لم يغمض فيها بنوم
يشاور السابقين الاولين والتابعين لهم باحسان ، ويشاور
امراء الانصار فاشسار عليه المسلمون بولاية عثمان ،
وتقدموا عثمان وبايعوه ، لا عن رغبة اعطاهم اياها ، ولا
عن رهبة اخافهم بها » .

وايا ما يكن الامر ، فان روح الاسلام وروح ما اسلفنا من وقائع
ثم روح العصر الذي نعيش فيه تحتلن قيام البيعة لرئيس الدولة
بالشورى والاقتراع الحر الذى تيسرت اسبابه فاصبح من المستطاع
معرفة راي الامة حين تختاره لرئاستها وتقترع عليه في يومين او ثلاثة
مهما يبلغ تعدادها وتتسع رقعتها .

وعلى اختيار الشعب لحاكمه يتوقف مستقبله القريب والبعيد
ومن الظواهر الصادقة انه كلما كانت الامة عالية في مستواها
الحضارى ، كان اختيارها لحكامها صائبا وسديدا .

والاسلام يعلمنا ان سوء اختيار الحاكم ايدان بضياع الامة . .

يقول عليه السلام :

« اذا وسد الامر الى غير اهله خانتظر الساعة » .

أى إذا ولى الحكم فى أمة من الأمم من ليس أهلا له ، فانتظر
ساعة هذه الأمة تدق . علنة ضياعها وهلاكها . . . !!
والحاكم المسلم يحقق أمرين لا بد منهما — القدوة الصالحة ،
والعدالة الشاملة .

أنه يرث رسول الله فى منصبه كقائد دولة ، لهذا كان حتما عليه
أن يسير على نهج الرسول ما استطاع الى ذلك سبيلا .

ويصف الإمام على الحاكم المسلم فى شىء من التفصيل فيقول :
« لا ينبغي أن يكون الوالى على الاعراض والدماء والمغانم
والاحكام وامامة المسلمين بخيلا ، فتكون أموالهم نهمة . .
ولا جاهلا ، فيقتلهم بجهله . . ولا جافيا ، فيقطعهم بجفائه
. . ولا خائفا من الدول ، فيتخسذ قوما دون قوم . . ولا
مرتشيا فى الحكم ، فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع
. . ولا معطلا للسنة ، فيهلك الأمة » . . .

واللدولة المسلمة طاعة ابنائها مادامت متحققة بالدين الذى
أقامها ودعا الناس لطاعتها .

يقول عليه السلام :

« اسمعوا وأطيعوا ، وان استعمل عليكم عبد حبشى كان
رأسه زبيبة ، ما أقام فيكم كتاب الله » .

ويقول عليه السلام :

« على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره الا ان
يؤمر بمعصية ، فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

أجل ما أقام فيكم كتاب الله . . أي ما احترم الدستور الذي نحيا عليه وتدين به الدولة المسلمة .

فإذا فسق الحاكم وبغى وظلم فلا سمح له ولا طاعة . بل ولا بيعة . وعلى الأمة أن تنبذه وتخلعه .

ذلك أن الدولة كلها وسلطاتها الثلاث جميعا — التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية — كل هؤلاء أمعاء على حكم الله وعلى مشيئة الشعب .

وأي نوع من الحكم يعطل كتاب الله الذي هو دستور الدولة المسلمة ويتحدى إرادة الأمة ، ويودي بسيادة القانون فلا حرمة له ولا ذمة ولا بقاء .

ولا تنتهي مهمة الأمة باختيار الحاكم ، بل تبدأ بهذا الاختيار . وتذهب معه كل مذهب ، وتراقبه وتعاونه على البر والتقوى، وتزجره عن الخيانة والانحراف .

وهذا يتأتى بوجود رأي عام قوى وذكي .

والرأي العام في الدولة المسلمة ضرورة مفروضة ، لأنه صمام الأمان ، والعين الثابتة ، والكلمة الطيبة .

والرأي العام ، هو ما أسماه القرآن والاسلام [الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر] .

أجل — هذا هو ما نسميه اليوم بلغة العصر « الرأي العام » . ذلك أن وظيفة الرأي العام هي متابعة أحداث المجتمع ومراقبة جميع

سلطاته ، وتسلط الضوء على الاخطاء السياسية والاخلاقية ،
والاجتماعية ، ومقاومة كل تحد للدستور والقانون ، وتبصر الآخرين
من فئات الشعب بواجبهم تلقاء المواقف والاحداث .

وهذه تماما هي وظيفة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ودور
الرأى العام فى الدولة المسلمة دور ترشيد وبناء .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« ان الله يرضى لكم ثلاثة :

• « أن تعبوه ولا تشركوا به شيئا » .

• « وأن تعصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

• « وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » .

ويقول عليه السلام :

« الدين النصيحة .. قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ،

ولكتابه ولرسوله ، ولائمة المسلمين وعامتهم » ..

ويقول ايضا :

« ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم :

● اخلاص العمل لله

● ومناصحة ولاة الامر

● ولزوم جماعة المسلمين » .

فالنصح للحاكم اول وظائف وواجبات الرأى العام .. وكلما كان
الرأى العام مهذبا جاءت نصائحه مهذبة . فالنصح شىء أخسر غير
التشهير به والحقد عليه .

وإذا توجه الراى العام بنصحه فلوى الحاكم جیده وثى عطفه، فان ذلك لا ينبغى أن يفت فى عضد الناصحين بل عليهم أن يتشبثوا بكلمتهم ويرددوها كالنسيء ، ويذيعوها بين الناس حتى يتكون حولها رآى عام يصبح قادرا على ابلاغها واخضاع الحاكم لها .

وكل حاكم يضيق بالراى العام ويحاول خنقه فهو فى نظر الاسلام معطل لشريعة من شرائع الله وفريضة من فرائضه . . تلك هى فريضة « الامر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

لقد كرم الله هذه الامة المصدية لانها تحبب شعيرة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقال تعالى :

« كنتم خير امة اخرجت للناس . تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

واهان ولعن قوما آخرين لانهم تخلوا عن فريضة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال سبحانه :

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسسان داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون » .

وقال عن احبارهم الذين صمتوا عن كلمة الحق :

« لولا ينهاهم الربانيون والاحبار عن قولهم الاثم واكهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون » .

ووقف خليفة رسول الله ابو بكر يوما خطيبا فقال :

« سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان

الناس اذا راوا الظالم ، فلم يأخذوا على يده اوشك ان
يعمهم الله بعقاب .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر .
او ليوشكن الله ان يسمع عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا
يستجيب لكم » .

الى هذا المدى يزود الاسلام دولته ومجتمعه برأى عام فعال
وبار ونشيط . .

وكما قلنا ، فان محاولة الدولة احباط هذا الراى العام وواده
يمرضها لمقت الله وسخرية الناس ويحق عليها المقاومة وضرورة
التغيير .

ان الاسلام يدرك ان الحياة الانسانية مكتظة بالخطايا والاختاء
ويدرك ان الله لم يعط انسانا الحقيقة وحده مهما اوتى من بسطة
فى العلم والذكاء .

ويدرك ان السلطة المطلقة منسدة مطلقة . . من اجل هذا راح
يحاصرها - ان صح هذا التعبير - برأى عام يقظ ومخلص ورشيد .
ينهه من كبرياء السلطة ويطامن من غرورها . فاذا تنكر الحاكم لهذا
الراى العام واحتال على اسكاته بالكذب والخديعة ، او بطش به غير
مبق عليه ولا مكترث به فقد حرم نفسه قبل ان يحرم الامة من النور
الذى يضىء له الطريق .

والدولة كما نعلم ، تقف على راس التنظيمات السياسية للامة

ولكى ينهض من حولها رأى عام يساندها اذا صلحت ، ويقومها
اذا انحرفت ، فلا بد لهذا الرأى ان يكون متمرسا بكل مشاكل الامة
وقضاياها وعلى وعى عميق بها . . ولا بد ان يكون له من الفكر
السياسى نصيب موفور . اذ كيف يكون له رأى فى القضايا السياسية
دون ان يكون له علم بها ؟!

ومن هنا نرى ان الاسلام عبادة وسياسة .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .

فالمسلم الذى يقضى نهاره صائما ، وليله قائما ، ثم ينقض يديه
من مشكلات امته ، ويتخلى عن واجبه المحتوم فى الاهتمام بأمر الامة
المسلمة لا يكون منها ولا يحسب عليها .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« لان امثى فى حاجة اخ لى حتى تقضى احب الى من ان

اعتكف فى مسجدى هذا شهرا » . . !!

هذا فى حاجة فرد . . فكيف بحاجات امة ، ومشكلات مجتمع ،

وسياسة دولة . . !!

— ٨ —

والدولة الاسلامية دولة دستورية لها دستور ينظم حياتها
السياسية ، ويكفل حقوق الامة عليها وحقوقها على الامة . ولها
قوانين سائدة ومتطورة فى حدود علاقاتها بالدستور .
ودستور الاسلام هو القرآن ، والسنة ، والاجماع .

القرآن أولا . . ثم تأتي السنة والاجماع ومعهما الاجتهاد ليفصلوا من القرآن ما أجهل ، ويوضحوا ما أحكم . ويأتى النسخة الاسلامي فيضع القوانين المستنبطة من كتاب الله ، وسنة رسوله . واجماع امته ويثرى الاسلام اثره هائلا وعظيما .

والقرآن دستور الدولة المسلمة يمتاز عن كل دساتير الدنيا ماضيها ، وحاضرها ، ومستقبلها بأنه ليس من صنع البشر ، بل تنزيل من حكيم حميد .

وهو بهذه المثابة فوق كل محاولة للتمرد عليه او التغيير فيه . ثم هو بهذه المثابة ايضا اكثر دساتير البشر تمكينا للاستقرار والرسوخ مع قابلية غذة وذكية لكل مسيرة لروح العصر وتطور الأنظمة ، وان الانسان ليقع في حيرة شديدة كلما رأى حكومات اسلامية ومجتمعات اسلامية تتخذ القرآن مهجورا . . !!

ان دستور الدولة الاسلامية هذا فوق كل عصيان او مخالفة . . هذا هو مكانه الذي بواه الله اياه . . حتى الرسول الذي أنزل عليه لا يملك مخالفته او تغييره .

ونحن نعلم ان وجود حكومة ما يعنى ان هناك قانونا يطاع ويسود . فوجود حكومة اسلامية يعنى اول ما يعنى اجلال دستورها والخضوع لقوانينها .

ولقد جاء الاسلام بدستوره الالهي « القرآن » ثم وسع النسخة الاسلامي كما فكرنا من قبل دائرة التقنين والتشريع بحيث فصل وقتن كل علاقة الفرد بنفسه، وبأسرته، وبجيرانه، وبمجتمعه، وبحكومته ، وبعالمه الفسيح كله . . وقبل هؤلاء جميعا وطد علاقة الانسان بربه .

وإذا كان تحكيم الدستور وطاعته واجب الأمة ، فهو أولا وقبلها واجب الحاكم .

فالحاكم المسلم الذي لا يحكم الدستور القرآني ، يصعب جدا الاعتراف له بأنه حاكم مسلم .

لقد ربط القرآن طاعة اولي الامر بطاعة الله ورسوله فقال :
« اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » .

ولعله لحكمة ما ، لم يقل : واطيعوا اولي الامر منكم اذ اعتبر طاعتهم امتدادا لطاعة الله ورسوله مادام حكمهم امتدادا لشريعة الله ومبادئ رسوله .

من أجل هذا كانت اول كلمات استقبال « أبو بكر الصديق » بها المسلمين اثر مبايعته :

« اطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت فلا طاعة لي عليكم » .

ومعنى هذا ان الحاكم المسلم الذي يعصى الله في حكمه ، ويجحد قرآن ربه ، يوقع في نفس الوقت وثيقة عزله ..

ومن أجل هذا رأينا « الفاروق عمر » يستهل اللحظات البكرة من خلافته بسؤال وجهه الى حشود المبايعين :
« ما تقولون اذا ملت براسي هكذا ؟! » .

فيجيبه احد الصحابة وقد انتضى سيفه وشق به الهواء :
« اذن نقول بالسيف هكذا !! »

يتهلل وجه « عمر » ويقول :

« الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقسوم اعوجاج
عمر بسيفه » . . . !!

ارايتم . . ؟؟

ان الرجل الذى يتحدث بهذه الكلمات هو الذى سيورثه الله عما
قريب ملك كسرى وقبصر .

الرجل الذى كان اصحابه يرقبون ابتسامته ترقب الالهة من
طول كظمه تسفتيه خوفا من الله وتوقيرا له ، وغرقا من مسئوليياته
ان يزل غيها او ينوء بها .

والرجل الذى خلق ليقود عالما ، والذى رزق طبيعة تقتلها
الراحة ويغريها العمل بالعمل (١) .

هذا هو الرجل الذى يتهلل وجهه ويتللا الحبور على جبينه
عندما يرى سيفا يلوح به صاحبه وهو يقول لامير المؤمنين :

« اذن نقول بالسيف هكذا » !!!

* * *

ولماذا نعرض عن القرآن ؟؟

لماذا نتهيب الحكم به والتسليم له ؟؟

(١) راجع كتابنا « بين يدي عمر » طبعة دار المعارف .

انستطيع ان نحكم انفسنا بخير منه ؟؟ ايستطيع عباقرة التشريح
ان يتفوقوا عليه ، ويأتونا بأفضل منه ؟؟

هذا الذى نقل الينا كلمات الله عنه فقال :

- « قد جاعكم من الله نور وكتاب مبين » .
- « ما أمرطنا فى الكتاب من شيء » .
- « وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه » .
- « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور »
- « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » .
- « أولم يكنهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » .

انه دستور لا يزاحم ولا ينافس ولا يضاهى به سواه وليس أمام
الدولة المسلمة أى خيار فى ان تأخذ بعضه وتذر بعضه . وان فعلت
صعبا تائب الله وهو يقول :

- « اغتؤمنسون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض . . ! ؟
- « فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزي فى الحياة الدنيا
- « ويوم الأقامة يردون الى أشد العذاب ، وما الله »
- « بغافل عما تعملون » . . !!

كل ما تحتاجه الحياة ويحتاجه الناس من توجيهات ونظم وقوانين
وآداب موجود فى اسلامنا . . موجود فى قرآننا العظيم . . وليس ثمة
ما يدمو الى هجر القرآن ، ولا الى هجر الاسلام اللذين ارتضاها
!الله لنا كتابا ودينا .

ولكن ما منهج الدولة المسلمة في العلاقات الدولية . . ؟

وهل هي دولة حرب ام دولة سلام . . ؟

اما منهجها في العلاقات الدولية فتوضحه آية من آيات دستورها
« القرآن » تلك التي تقول :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم
يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم . ان الله
يحب المقسطين

« انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين ، واخرجوكم
من دياركم ، وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم . ومن
يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

فالدولة المسلمة مأمورة من ربها ، ومدعوة من دستورها الى ان
تقيم تعايشا سلميا بينها وبين كل دولة لا تقدم اليها الاذى ولا تحوطها
بالمؤامرات .

ووفق الآية المسالفة ، فان كل من لم يقاتلنا في ديننا ، ولم
يخرجنا — نحن المسلمين — من ارضنا ، ولم يظاهر غيره على اخراجنا
فله مودتنا الخالصة وتعاوننا الوثيق .

وبالعكس ، فان كل من يقاتلنا في ديننا ويخرجنا من ارضنا ، او
يظاهر الذين يخرجوننا ، فليس له الى مودتنا ولا الى صداقتنا سبيل .

هذا هو موقف الدولة المسلمة من العالم الذي حولها توضحه الآية الكريمة في ايجاز مبين .

والهيئات الدولية التي تقوم والمواثيق الدولية التي تقبها تأخذ الدولة المسلمة مكانها بينها وتحمل تبعاتها منها ، فلا تهدم بنيانا ولا تحنث بعهد وميثاق ، ذلك أن دستورنا يأمرها :
« يا ايها الذين آمنوا اوفوا بالعقود » .
« و اوفوا بالعهد ، ان العهد كان ممثولا » .

ولقد انشأ الرسول صلى الله عليه وسلم معاهدات كثيرة تميزت بنشداتها السلام وتوكيدها على المشاركة العادلة في خدمة المتعاقبين ولم يحدث ابدا ان نكث الرسول بعهد اعطاه او موثق امضاه .

ويصلنا الحديث بالسؤال الذي طرحناه آنفا :

هل الاسلام دين حرب ام دين سلام ؟

وعندى ان الجواب الصحيح هو ان الاسلام دين عدل . . فعندما تكون الحرب عدلا وتحقيقا للعدل فهو دين حرب . وعندما يكون السلام هو العدل فهو دين سلام .

لا يجبن عن نصره الحق ، ولا يهرب من تبعات السلام . . والمهم هو سلوك الآخرين . ماذا يريدون للاسلام . الحرب ام المسالمة . . ؟؟

لقد قال الله لنبيه ، وهو في نفس الوقت امر للدولة المسلمة :
« وان جنحوا للسلم فاجنح لها . وتوكل على الله . انه هو السميع العليم » .

وامره وامر الدولة حيث تكون بان تقف موقف الحذر من الذين :
« ان يثقفوكم يكونوا لكم اعداء ، ويبسطوا اليكم ايديهم
والسنتهم بالسوء . وودوا لو تكفرون » .

ونحن اذ نتقبح آيات القتال في القرآن — دستور الدولة
المسلمة — نجد ان اول آية نزلت بامر بالقتال والجهاد كانت هذه
الآية :

« اذن للذين يقاتلون — بفتح التاء — بانهم ظلموا . وان
الله على نصرهم لقدير » .
« الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا
الله » .

وكم هو رائع هذا التعبير « اذن للذين يقسطنون بانهم ظلموا
— بضم الظاء — .

ان اول آية نزلت في القرآن تبيح القتال وتأذن للمسلمين بمجاهدة
عدوهم ، تمنحنا الفهم بان المسلمين كانوا ممنوعين من حمل السيف
ضد عدوهم لعله يرتدع ويتذكر ويخشى ويثوب الى رشده بما يلقونه
به من حلم ومصابرة . فلما فشأ بغيه واشتدت على المسلمين وطأته ،
اذن للذين يقاتلون بانهم اي لانهم ظلموا . .

فهنا قوم مظلومون مضطهدون ، ورغم قدرتهم على القتال غمهم
مدفوعون عنه ومنوعون منه حتى جاءهم الاذن من الله الذي هو على
نصرهم قدير .

وهذه الآية تبين طبيعة الحرب في الاسلام ووظيفتها . فهي حرب
دفاع ، لا حرب غزو واستعمار وقهر وتسلط .

وكذلك الآيات التي أنزلت خلال تطور المجابهة العسكرية بين الإسلام والشرك . بين المسلمين وأعدائهم تلتزم نفس الغاية : الدفاع عن النفس . . والدفاع عن حق الانسان في اختيار عقيدته وإيمانه ونوع حياته ، وحقه في دعوة الآخرين من بنى البشر الى ما يرى فيه صلاح أمرهم .

فالآيات تقول :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » .

وتقول :

« فان قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فان اقتهوا فان الله غفور رحيم » .

وتقول :

« ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من ادنك وليا ، واجعل لنا من ادنك نصيرا » .

كل هذه الآيات نزلت تدعو المسلمين الى الدفاع عن أنفسهم ، والى قتال من يقاتلهم ، فلما احتشد أهل مكة مع قبائل العرب واليهود مصممين على الخلاص بالحرب من الإسلام ورسوله نزلت الآية الكريمة : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

ونزلت الآية الكريمة :

« وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » .

لقد نبأ الله المسلمين بنوايا المشركين واليهود تجاههم فقال :
« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » ..

« ومن يرتدد منكم عن دينه فحيت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

أمام هذا الجموح العنيد من اعداء الاسلام . وأمام اصرارهم على اغناء المسلمين لا يخجل الاسلام من أن يكون دين حرب وقتال . بل عندئذ يعد الجهاد في سبيل الله غريضة على المسلمين ويدعوهم أن يهبوا حاملين الراية منتضين السيوف طامحين الى احدى الحسينيين النصر ، أو الشهادة ..

وهو — أعنى الاسلام — لا يترك عندئذ فرصة لجعل المسلمين مقاتلين مستبسلين الا اغتتمها ودق طبول الحرب عندها .
« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيول ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

« الذين آمنوا ، وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله . وأولئك هم الفائزون »

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال » .

« .. واقتلوهم حيث تقتلوهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » .

« نلقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالأخرة » .

« ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب غسوف نؤتية اجرا عظيما » .

« فأما تثقفنهم فى الحرب فشد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون » .

« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن . ومن اوفى بعهده من الله » .

« ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كانهم بنيان مرصوص » .

« فاذا لقيتم السنين كنوا فحرب الرقاب . حتى اذا

اتخذتموهم فشدوا الوثاق . فلما منا بعد واما ذداء حتى
تضع الحرب اوزارها « . .

اجل — لا يسوء الاسلام ولا ينتقص من قدره ان يكون دين
حرب وقتال اذا جوبه بعباوة حاكمة وهجوم مسلح من اعدائه واعداء
ذويه .

لن يدع الاسلام اهله يقفون مكتوفى الايدي وهم يذبحون ، ولن
يامرهم ان يديروا خدهم الايسر لن يلطم خسدهم الايمن ، لان هذه
مثالية لم ترق اليها بعد طبيعة الانسان .

بل من قاتلك فقاتله . . ومن قتلك فاقته .
« ولكم فى القصاص حياة » .

« قاتلوهم ، يعذبهم الله بايديكم ويخزهم وينصركم عليهم
ويشف صدور قوم مؤمنين » .

* * *

اننا حين نتتبع غزوات الرسول لا نجده قد خرج فى واحدة منها
باننا يقتال . .

● كانت غزوة « بدر » دفعا للمشركين الذين جاعوا يقتحمون على
المسلمين حياتهم الجديدة فى المدينة . .

● وغزوة « احد » كانت دفعا للهجوم الكاسح الذى شنه المشركون
الذين جاعوا فى ثلاثة آلاف مقاتل ، بينما خرج الرسول بالف رجوع

ثلثهم من منتصف الطريق بتحصريض زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول .

● ويجيء قوم الى الرسول يرجونه ان يرسل معهم وغدا من اصحابه يعلمون قومهم القرآن والاسلام . وفي الطريق غدروا بهم وقتلوهم فكانت غزوة « بنى لحيان » .

● لقد قتل المجرمون نفرا من خيار اصحاب الرسول . ولما علموا بخروج الرسول اليهم هربوا وتمنعوا في رموس الجبال وعلى الرغم من انه لم يدر قتال ، فقد تعلم خصوم الاسلام ان دم المسلم — اى مسلم — غال وعزيز .

● ويحاول اليهود من بنى النضير اغتيال الرسول عليه السلام ، فيخرج اليهم ويحاصرهم . حتى اذا توسلوا اليه ان يتركهم يغادروا المدينة الى خيبر سمح لهم بذلك مع علمه تماما انهم في « خيبر » سيحرضون عليه قريشا والقبائل .

● وقد حدث هذا فعلا ، فقد ذهب يهود بنى النضير هؤلاء يحرضون على الرسول قريشا وسائر العرب ، ويحزبون ضده الاحزاب حتى هوجىء المسلمون ذات يوم بعشرة آلاف مقاتل يهساجمون المدينة — وكانت هذه غزوة « الخندق » التي رد الله المشركين واليهود بغيظهم مدحورين .

● وفي غزوة الخندق هذه قام جماعة اخرى من اليهود ، هم يهود بنى قريظة بخيانة بشعة مولين ظهورهم لما كان بينهم وبين الرسول من عهد . وكانت خيانتهم هذه تودى بالاسلام وبالمسلمين فكان لابد من تاديبتهم . وهكذا كانت غزوة « بنى قريظة » .

- ولا يكاد الرسول والمسلمون يستريحون حتى تأتيهم الانبياء بأن بنى المصطلق قد خرجوا لحربهم تحت قيادة الحرث بن ابي ضرار ، فكان لابد من ملاقاتهم وهكذا كانت غزوة « بنى المصطلق » التي هزم فيها الجيش المعتدى هزيمة ساحقة .
- ولا يكف اليهود عن التآمر ضد الرسول والاسلام ، ولا يقفون عن الدس والارجاف . وغرتهم مصابرة الرسول لهم . بل ومحافظته على كل حقوقهم واحترام شعائرهم فحشدوا جموعهم للاغارة على المدينة . وتزعم هذه المحاولة يهود خيبر ، فاضطر الرسول للخروج اليهم واسكات صوتهم الى الابد . .
- وتوجس الروم من الاسلام خيفة ، وصساروا يرون فيه خطرا يهددهم لا سيما في بلاد الشام التي يستعمرونها والتي تقاخم بلاد هذا الدين الجديد . وهكذا راحوا يتخذون من الشام مركز شغب ووثوب وتجرا حلفاؤهم الفساسنة على قتل الرسول الذي بعثه النبي اليهم بكتاب يدعوهم فيه الى الاسلام ، وازداد تحرش الروم وتمرهم وراحوا يحشدون جيشهم على الحدود فلم يكن بد من أن يخرج المسلمون اليهم وكانت هذه غزوة « مؤتة » .
- وينقض أهل مكة معاهدة الحديبية المبرمة بين الرسول وبينهم رغم ما اعطاهم الرسول فيها من تنازلات كادت تعصف بايمان بعض المسلمين . ومع هذا نفى السنة الثامنة للهجرة نقضت قریش عهدا ، واغارت على حلفاء الرسول الذين استنصروا به فلم يكن بد من نصرتهم وهكذا كان فتح مكة العظيم . . !!
- ولا يكاد الرسول يتهيأ للراحة قليلا حتى يثابجا بعد خمسة عشر

يوما من فتح مكة بقدم هوازن وثقيف في جيش لجب يريدون قتال الرسول والمسلمين ، فكان لابد ان يخرج للقائهم ، وهكذا كانت غزوة «حنين» ثم حصار الطائف .

● ثم لا يمر الا زمن وجيز حتى يفاجا الرسول بحشود هائلة من الروم تتجمع على حدود فلسطين لقتال المسلمين ، فكان لابد ان يخرج الرسول اليهم على راس جيش عظيم - وهكذا كانت غزوة «تبوك» التي هي آخر غزواته عليه الصلاة والسلام والتي انتهت دون قتال .

فأين في ذلك كله روح العدوان !! أين حب المفاسرة الشريرة والقتال الباغى .. !!

الا ان الاسلام دين القتال ما كان القتال عدلا .. ودين السلام ما كان السلام عدلا .

والدولة المسلمة مأمورة بالتزام هذا النهج دون اغراط ودون تفريط .

- ١٠ -

ودولة الاسلام حصن حصين للاقلية التي تعيش معها وبين مواطنيها ، لا سيما حين تكون هذه الاقلية اهل كتاب أو اهل ذمة كما يسميهم الاسلام .

ان الدولة الاسلامية مأمورة من الله ومن رسوله برعاية حرماتهم وحفظ حقوقهم ، وتركهم احساراً في العيش وفق معتقداتهم

يقول عليه الصلاة والسلام :
« من قتل معاهدا ، حرم الله عليه الجنة » .

ويقول عنه السلام :
« من ظلم معاهدا ، أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ،
أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم
القيامة » .

وعن العرياض بن سارية السلمي رضي الله عنه يقول :
« قزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قلعة خيبر
ومعه من معه من المسلمين . وكان صاحب خيبر رجلا
ماردا متكبرا ، فاقبل الى النبي صلى الله عليه وسلم
فقال : يا محمد ايحل لكم أن تذبحوا حمرنا ، وتأكلوا
ثمرنا وتضربوا نساءنا . . ؟

« فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن
عوف . اركب فرسك ثم ناد : ان الجنة لا تحل الا للمؤمن
وان اجتمعوا للصلاة ، فاجتمعوا ثم صلى بهم عليه السلام
ثم قام فقال : ايحسب احدكم متكئا على اريكته يظن ان
الله تعالى لم يحرم شيئا الا ما في القرآن . . !؟
« الا واني والله قد وعظت وامرت ونهيت عن اتسياء
انها لمثل القرآن .

« وان الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب
الا باذن ولم يحل لكم ضرب نساءهم ، ولا اكل ثمارهم اذا
اعطوا الذي عليهم » !!

فبالاسلام يحفظ حقوق المواطنين جميعا مسلمين كانوا ، ام يهودا
او نصارى واذا كان يفرض على اليهود والنصارى « الجزية » ، فكما
يفرض على المسلمين « الزكاة » كلناهما حريية تؤدى لببيت المال . بل
ان المسلم يدفع الزكاة ويحارب ويتحمل كل ميثاق القتال اما الذمى
يهوديا كان او نصرانيا فانه لا يحارب ولا يخرج لقتال . . !!

وحين نطالع على سبيل المثال بعض المعاهدات التى حررها
رسول الله عليه السلام وخلفاؤه من بعده لاهل الكتاب نرى عجا . .

فاليهود يقول الرسول فى عهده لهم ، معهم :

« ان يهود بنى عوف امة مع المؤمنين . . لليهود دينهم .
وللمسلمين دينهم — مواليتهم وانفسهم الا من ظلم
واثم ، فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته » (١)

ثم يعدد الرسول بقية اليهود الذين لهم مثل ما لبنى عوف من
عهد .

وفى عهده لنصارى نجران يقول عليه السلام :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب امان من الله
ورسوله لثنتين اوتوا الكتاب من النصارى — من كان
منهم على دين نجران ، او على شىء من نحل النصرانية
كتبه لهم محمد بن عبد الله رسول الله الى الناس كافة .
نمة لهم من الله ورسوله وعهدا وعهده الى المسلمين من

(١) كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة .
جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى .

بعده . عليهم ان يعوه ويعرفوه ويؤمنوا به ويحفظوه لهم
« ليس لاحد من الولاة ، ولا لذي شبيعة من السلطان
وغيره نقضه » .

ثم يفصل حقوق النصارى في كتاب آخر وعهد آخر وذيه يقول:
« ... للسيد الحارث بن كعب ، ولاهل ملته ، ولجميع
من ينتحل دعوة النصرانية في شرق الارض وغربها . .
اعطيهم عهد الله وميثاقه ان احفظ اقاصبيهم ، واحصى
جانبيهم ، واذب عنهم وعن كنائسهم وبيعتهم وبيوت
صلواتهم وان ادخلهم في ذمتي واماتي ، ولا يهدم بيت من
بيوت بيعهم ، ولا يدخل شيء من بنائهم في شيء من ابنية
المساجد ولا منازل المسلمين غير فعل ذلك فقد نكث عهد
الله وخالف رسوله » .

والميثاق طويل فغير اجمعه من يشاء في مصدره (١) وهو ميثاق يزخر
بانبل ما في الانسانية من عاطفة ، واعظم ما في الحياة من وفاء ورحمة
وصدق ونبل .

وعندما بويح « ابو بكر » جدد العهد لنصارى نجران كرة اخرى
« هذا ما كتب به عبد الله ابو بكر خليفة محمد رسول
الله صلى الله عليه وسلم لاهل نجران .

« اجارهم بجوار الله ، وذمة رسوله على انفسهم ،
وارضهم ، وملتهم ، واموالهم ، وحاشيتهم ، وعبادتهم ،

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة

وغائبهم ، وشاهدتهم ، وأساقفتهم ، ورهبانهم ، وبيعتهم ،
وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير » ..

وكذلك فعل « عمر » في العهد الذي أعطاه لنصارى المدائن

وغارس :

« .. أما بعد فإني أعطيتكم عهد الله وميثاقه ، على
أنفسكم وأموالكم وعيالكم ورجالكم وأعطيتكم أمانى من
كل أذى ، والزمتم نفسى أن أكون من ورائكم ذابا عنكم
كل عدو يريدنى بسوء وأياكم .. وإن أعزل عنكم كل أذى
.. ولا يغير أسقف من أساقفتكم ، ولا رئيس من رؤسائكم
ولا يهدم بيت من بيوت صلواتكم ، ولا يدخل شئ من
بنائكم إلى بناء المساجد ولا إلى منازل المسلمين ، ولا
تكنفوا . الخروج مع المسلمين إلى عدوهم لملاقاة الحرب ،
ولا يجبر احد من النصارى على الاسلام عملا بما أنزل
الله في كتابه [لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى]
« ولى شرط عليهم : الا يكون احد منهم عينا لاهل الحرب
على احد من المسلمين فى سر ولا علانية ، ولا يؤوا فى
منازلهم عدوا للمسلمين ، ولا يدلوا أحدا من الاعضاء
ولا يكتبوه .. الخ »

فى اى دنيا غير دنيا الاسلام نجد هذا التسامح الفريد .. ١٤
واين هذا بما صنعتته اسبانيا المسيحية بالامس مع مسلمى
الاندلس الذين ورثوا الاسبان حضارتهم ومدنيتهم .. ١٤

واين هذا مما تصنعه قوى التبشير المسيحى العالمية اليوم من
كيد للاسلام والمسلمين .. ١٤

ولنقرأ الامان الذي اعطاه امير المؤمنين لاهل ايليا ، وهذا نصه
كما يرويه الطبري :

« هذا ما اعطى عبسد الله عبر بن الخطاب امير المؤمنين
اهل ايليا من الامان . اعطاهم امانا لانفسهم واموالهم ،
ولكنائسهم وصلبانهم . الا تمسكن كنائسهم ولا تهشم
ولا ينتقص منها شيء ولا من صليبيهم ولا من اموالهم ،
ولا يكرهون في دينهم ، ولا يضار منهم احد » .

الا ان اعظم هبات الاسلام لهو التسامح . وهو لا يضمن رواءه
على قريبي العهد من الرسول وحسب بل وعلى كسل من اعتنق
الاسلام وغهيه ووعاه .هما تباعدت به العصور .

وهذا هو الدكتور حسن ابراهيم رحمه الله يحدثنا عن كرامن
ان « ازبك خان » وهو اول من ادخل الاسلام الى روسيا ، وكان
شديد التحمس له ودائب الدعوة اليه ، علمه الاسلام كيف يكون
التسامح وغرس فضيلته في فؤاده فتسامح مع رعاياه من المسيحيين
ومنحهم الحرية التامة في اقامة شعائرتهم ، وسمح لهم بالتبشير بدينهم
وتشره في بلاده وحرر بهذا وثيقة تقول :

« ان كنيسة بطرس مقدسة ، ولا يحل لاحد ان يتعرض
لها ، او لاحد رجالها بسوء ، ولا ان يستولى على شيء من
عقارها او متاعها ، ولا ان يتدخل في امورها . ومن خالف
امرنا عذا بالتعدى عليها فهو مجرم امام الله ، وجزاؤه
منا القتل » (١) .

(١) التاريخ السياسي للاسلام ج ١ .

إلا حيا الله الاسلام ، وحيا اهله وفويه في كل زمان ومكان .
ان هذه الوثيقة التي نطالعها الآن كتبت في القرن الرابع عشر
الميلادي وهي شبيهة بالمعهد الذي قطعه على نفسه أمير المؤمنين في
السنوات الأولى من القرن الأول الهجري . . . 11

وعلى طول ما بين المهديين من قرون ، فكانت لها عهد واحد ،
لأنها يسقيان بماء واحد ، وينهلان من روح واحد هو روح الاسلام
العظيم الذي قال دستور الخالد :

« ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

« ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن » .

— ١١ —

والاسلام بعد ذلك دين حضارة لا يعرف التخلف ولا الجمود .
واذ كانت الحضارة تبدأ بالمعرفة والعلم ، فقد علم الاسلام ابناءه ان
يركضوا الى العلم ركضا ، ويتزاحموا حوله بالناكب ، ويقبلوا عليه
اقبال العاشق المشغوف .

والعلم الذي يحض الاسلام أتباعه عليه هو علم النيا والآخرة .
العلم الذي يزكى النفس ويسمو بالروح ويعرف المسلم حق الله عليه .
ثم العلم الذي يجعل الدنيا مكانا طيبا للحياة عن طريق الحضارة في
شئى مجالاتها وصفونها النظيفة .

يقول القرآن الكريم :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . . . 12

ثم يتوج العلماء بتاج الكرامة حين ينعتهم بأنهم من أكثر الناس
معرفة بالله وخشية له :

« انما يخشى الله من عباده العلماء » .

والله رب العالمين يدعو عباده الى السعى نحو العلم ويمدهم
بان يهدهم من غضله بما لا يستطيعون الوصول اليه من علوم الدنيا
وعلم الآخرة الا بما يهبهم من عطائه . ويمدهم من علمه :

« ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

ويحضهم القرآن الكريم على افراغ الوسع في محاولة كشف
المجهول مخبرا اياهم ان لكل نبأ مستقرا ، ولكل مجهول نهاية يحوله
العلم بها الى معلوم .

« لكل نبأ مستقر ، وسوف تعلمون » .

ويدعو أتباعه الى الاستزادة من العلم دون توقف او تردد :

« فاسالوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

ويمن الله على عباده بأنه :

« علم الانسان ما لم يعلم » .

واذا كان المعلم هو الله فمعنى ذلك انه لا نهاية لما سيصل اليه
الانسان من علم ومعرفة ، وهذا هو السر العظيم الذي يقف وراء
المعرفة الانسانية التي لا تعرف النقصان ابدا ولا التوقف . وانما هي
من مزيد الى مزيد .

ذلك لان الله هو المعلم [علم الانسان ما لم يعلم] والمعلم سبحانه

لا حدود لقدرته ولا منتهى لعلمه ، ولهذا نجده سبحانه يقدم اليينا
واحدا من عباده الصالحين غاق غيره في العلم بالله والعلم بالحياة فيقول :
« وانه لخوا علم لما علمناه ولكن اكثر الناس لا يعلمون » .

وعظمة المسلم ماثلة في ان الله سبحانه نثره بالعلم الذي يعرفه
به وبالعلم الذي يكشف له سمادته في حياته ودنياه .

واذ يعلم الله ضعف النفس البشرية وانخداعها بمظاهر الحياة
الباطلة وركونها اليها فقد دعا عباده المؤمنين ان يجعلوا لشغفهم بالمعرفة
كوابح و « غراميل » حتى لا تسلك بهم مسالك الشر والتدمير ،
والا ينتادوا في غمرة حماسهم وراء العلم الذي يزخرف الحياة ناسين
العلم الذي يصلهم بالله ويعرفهم به .

اجل — ان القرآن ليدعو المسلمين الا يكونوا من الذين :

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الاخرة هم
غافلون » .

وهنا يبين الفارق الكبير بين الحضارة التي تشاد على قواعد من
علم مفرور ملحد ، والحضارة التي تشاد على علم ورع خاشع
لله رب العالمين .

ان الاولى تتحول الى وباء يفتك بالبشرية ويضع مصيرها على
الهوة الفاغرة .. بينما الثانية ترتقى بالانسان روحا ومادة الى آفاق
مامونة .

ويتودنا الرسول عليه الصلاة والسلام في طريق المعرفة والعلم
تودا حكيمًا ودعويًا . ويعلمنا فيقول :

« من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ، سهل الله به طريقًا
إلى الجنة » .

والعلم النافع المضيء الذي يهتدي القلوب إلى الله ، ويهتدي
العقول إلى الصواب ، ويحقق للحياة الإنسانية السلام والأمن والتقدم
وعافية الحياة هو العلم . . وهو ليس نافلة يتعلمه من يشاء بل هو كما
يقول الرسول :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

ويجعل المعاناة في تحصيله جهادًا .

« من خرج في طلب العلم ، فهو في سبيل الله حتى يرجع »

بل أكثر من ذلك يقول عليه السلام :

« من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه
وبين النبيين إلا درجة النبوة » .

« إذا جاء الموت طالب العلم وهو يتعلم مات شهيدًا »

« لا حسد إلا في اثنتين :

● رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق

● ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها » .

« ان العلماء ورثة الانبياء . ان الانبياء لم يورثوا دينارا
ولا درهما ولكن ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »

« ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم ارضا بما يصنع »
ونعود الى سؤال المحنا اليه من قبل ، هو اى علم يريده
الرسول ؟

انه — اولا — العلم الذى يفسر للناس امور دينهم ، ويدفع
حياتهم فى طريق الفضيلة والخير ، ويوفق اتصالهم بالله .

« تعلموا الفرائض والقرآن ، وعلّموا الناس ، فانى
مقبوض » .

ويقول :

« نضر الله امرا سمع مقالتي فحفظها ووعاها ، وبلغها
من لم يسمعها » .

فالعلم الذى يقدم للناس دين الله وسنة رسوله يأتى فى الصدارة
من كل العلوم .

وبعدئذ يجىء العلم بكل انواعه . العلم الذى يشيد الحضارات ،
وينفع الناس وينمى عطاء الحياة .

فالعلم الذى يقود خطى الحضارة فى رشد ، ويسهم فى دفع التقدم
الانسانى وينتفع به فى توفير الراحة والخير للناس — المسلمون
مدعوون اليه .

وفى هذا المجال يقول الرسول عليه السلام :

« اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث :

— صدقة جارية . .

— أو علم يفتنح به ..

— أو ولد صالح يدعو له .. »

فقوله عليه السلام [علم يفتنح به] ينتظم علوم الحياة التي تنفع
الناس وتيسر لهم وسائل العيش ، وتزيد ثراءهم العقلي والروحي .

وهو أيضا المعنى بقول الرسول :

« الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بها »

لقد وعى رسول الله قول الله له :

« وفوق كل ذي علم عليم » .

وقوله سبحانه :

« وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

فما هذا العلم الذي لا ينتهي لابعاده ولا حصر لعلمائه ؟؟

انه علم الدنيا والآخرة .. علم النفسك وعلم الحياة .. علم الكون
بكل ما نستطيع أن نصل اليه من كشوف وأسرار .. العلم الذي تتم به
عمارة الارض ، وازهار الحياة ورفعة الانسان .

« اطلبوا العلم ولو في الصين » .

فلا حدود من تخوم الارض ، ولا من تخوم العقيدة ترد المسلم

عن أخذ العلم النافع والحكمة الصادقة والمعرفة المتساوقة .

فالجهل هو الخطيئة الكبرى التي يعيذ الرسول منها امته .

وكما يقول الاحنف :

« كل عز لا يوجد بعلم ، فالى ذل مصيره » .

ولقد وعى علماء الاسلام روح التوجيه النبوى الكريم فتدوتوا في كل صنوف العلم وتآلقوا ، ثم علموا الدنيا ، وشادوا الحضارات . وهكذا بلغ العلم ارفع المنازل في الامة المسلمة والدولة المسلمة . وهكذا كان في كل عصور التاريخ الاسلامى يقود خطى الموكب العظيم الذى ظل يحمل راية التوحيد والايمان والغضيلة والخير والحضارة والتقدم فزونا تلو قرون .

وما نحسب العلم بلغ الغاية في رشده وهديه ونفعه للناس ، واحيائه لروح والعقل والضمير دون انحراف او زيغ او تخريب مثلما بلغ من ذلك كله في ظل الامة المسلمة . . خير امة اخرجت للناس !!

* * *

فالدولة المسلمة، وهذا مكانها من العلم، وهذه منزلة العلم فيها، اولى الدول بتبنى قضية الحضارة الانسانية والخيرة عليها والاسهام في بنائها واخذ الحظ الوافر منها .

وهبر التاريخ نلتقى بالحضارة الاسلامية وهى توظف العالم من سبائه وتعلم أوروبا وغير أوروبا أن تستجيب لدعوة التمدن والتقدم وأن تأخذ مكانها — ولو في آخر الصلوف — بين موكبها الهادر الذى كانت تقوده حضارة الاسلام وترعاه .

ان الجانب النظيف من حضارة أوروبا والغرب انما ولد في حجر الحضارة الاسلامية وتعذى بلباتها .

ومن دمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، وقرطبة وغيرها

كانت انوار الحضارة تشع منادية اليها القاصدين والرواد من أوروبا وغيرها .

وكانت حضارة تقوم على المادة والروح دون ان تسلم احداها للآخرى ، وبها يكن من امر الاتفلات الاخلاقي الذي اصاب الدولة المسلمة في بعض مراحلها فان الجانب الروحي بقي له نفوذه ودعائه والداعون اليه سرا وجهارا .. وليلا ونهارا ..

لقد اكتشف العقل الاسلامي في ظل دولته وبمعونتها اروع الكشوف في جميع غروع المعرفة البشرية وفي نفس الوقت كان ثبات ايمانته وشموخه امرا ملحوظا ومثيرا .

كنا اساتذة العالم في التجارة ، وفي العلوم بشتى انواعها ، وفي الكشوف والمخترعات ، في الطب .. في الادب .. في الفن .. في العمارة .. في الفلك .. في الكيمياء .. في الصناعة .. في الزراعة .

ويوم كان تجار المسلمين يطوفون العالم برا وبحرا بتجارتهم ، كانت أوروبا تقف بقراصنتها يعيثون في سواحلها غمادا ونهباً وتخريباً .

ان اعظم المخترعات التي نبهرنا اليوم يرجع الى آباءنا المسلمين العلماء فضل كشفها .

تقول « زجريد هونكه » (١)

« انفسا نقف الآن مشدوهين متعجبين امام تطوور فن الصواريخ العظيم دون ان نمسائل انفسنا الى من ندين بهذا الاختراع » .

(١) كتاب « شمس العرب تشرق على الغرب » .

ثم تثبت أنهم آباؤنا العرب المسلمون هم الذين يدين لهم الغرب والشرق بهذا الاختراع اذ كانوا اول من وضع نظرية تركيب البارود المتدفع في القرن الثاني عشر .

وعلوم الرياضيات والفلك والبصريات والحساب والجبر والارقام وعلم طبقات الجو - الارصاد الجوية - وعلم الميكانيكا . . . و اختراع الاجهزة الدقيقة المذهلة التي لا يكاد العقل يصدق انها اخترعت في ذلك العصر البعيد .

وفي ظل الدولة المسلمة قام الخوارزمي وابن الهيثم والبيروني وحسب ابن الهيثم ان نظسرياته في علمى الفيزيساء والبصريات لا تزال حتى يومنا هذا تحكم العقل الاوروبى الذى يسير في ضوئها .

وحسب البيرونى انه سبق « كوبرنيكس » وغيره . . سبقهم بخمسمائة عام الى اكتشاف ان الارض تدور حول نفسها ، ثم تدور مع الكواكب والنجوم حول الشمس ، وان الشمس ليست السبب في تفاوت الليل والنهار بل هي دورة الارض ذاتها .

وكان عفدنا ابن سينا والفارابى وعمر الخيام . . ومن عجب اننا لا نعرف من عمر الخيام الا جانبسه اللاهى ، بينما الغرب وأوروبا يعرفان انه الرجل الذى طور علم الجبر واوصله الى قمة عالية من الازدهار .

« بل ان من الانصاف والحق ان نقول : ان عمر الخيام قد وفق في الارتقاء بعلم الجبر الى ذروة سامقة لم يعرف لها فيما بعد مثيل الا على يد الفيلسوف الفرنسى « ديكارت » (١) .

(١) المرجع السابق .

ومنا « ابن رشد » الذى يقول عنه ج . بيورى فى كتابه
« حرية الفكر » .

« ان اول موجة من النور اضاعت أوروبا كانت مؤلفات ابن رشد »
وبينما كان الطب فى أوروبا واقعا تحت ايدى الدجالين من رجال
الكهنوت حيث يعالجون بالشعوذة جميع انواع الامراض حتى الجراحة
كانت الدولة المسلمة تزخر بالطباء المتقسين والبارعين فى شتى
التخصصات .

تقول « زجيريد هونكة » :

« أين هو البلد الذى عرف الطب بشموليته وعمقه وازدهاره
كما كان الطب العربى ؟ وأين هى الدولة التى عرغت مثل هذا الجمع
الكبير من الاخصائيين فى شتى حقول المسحة ، وتركيب الادوية
والمقاتر كما كانت الحال عند هذا الشعب ؟ وهل كان للمستشفيات
الحديثة فى الاصقاع العربية آنذاك مثل فى اى طرف من اطراف
الارض . . ؟ ان وسائل العلاج عندهم تتحدث ببلاغة عن عظمة
ابحاثهم . كما ان علم الصحة عندهم اروع مثل يضرب . . ولم العجب
والدهشة ، والوضع كان كما نعلم . . الم يطلب الفرنجة مساعدة
العرب الطبية ويلحوا فى التماسها » (١) .

اتنا حين نقرا لكتاب أوروبا والغرب عن حضارتنا فى الطب
نجدهم يتحدثون عن مستشفيات كأعظم وأنظف ما وصلت اليه أوروبا
اليوم ، كما يتحدثون عن أطباء لم ير العالم لهم مثيلا .

(١) المرجع السالف .

وانهم ليتحدثون عن الطبيب المسلم ابي بكر محمد بن زكريا
الرازي فيصفونه بأنه « احد اعظم اطباء الانسانية اطلاقا » .. !!

ويهيون هياما شديدا بالعالم المسلم « ابن الفليس » من علماء
القرن الثالث عشر الميلادي - وهو اول عالم على ظهر الارض نفذ
ببصره الى اخطاء « جالينوس » ونقدها ، ثم اكتشف نظرية الدورة
الدموية .

وعندنا ابن مسكويه وابن الخطيب والطبيب الطبري السنين
ابدموا في مجال الصحة والطب .

وكم من مكتشفات هائلة اكتشفها علماء الاسلام والعرب ،
انتحلها وادعاها اوروبيون وظاهروهم على ادعائاتهم كتاب وعلماء
اوروبيون .. !!

ولسنا نحن الذين نقرر هذه الحقيقة المؤسفة بل تقرها
المستشرقة الالمانية « زجريد هونكة » فتقول : (١)

« هذه المعارف المبتكرة العظيمة الشأن .. هذه
التحقيقات العلمية الرائعة التي قدمت العبقريّة العربيّة
الاسلامية هدية منها للانسانية عامة ، ولاوروبا خاصة ،
هل رددناها الى مصدرها ، وارجعنا فضلها الى
صانعيها .. !! »

« لقد كان الامر على العكس تماما ، فان اغلب
الاكتشافات العربيّة [الاسلامية] حملت معها ، ولا تزال

(١) شمس العرب تسطع على الغرب .

تحمل حتى يومنا هذا أسماء انجليزية ، أو فرنسية ، أو
المانية » .

لقد ظلت مؤلفات آباءنا المسلمين تدرس في أوروبا مئات السنين
ولم يكن في أوروبا كلها عالم واحد لم ينهل — في مجال تخصصه —
من كتب آباءنا السالفين .

لقد كان آباؤنا المسلمون سادة حضارة من اعظم واروع
حضارات العالم وليس ثمة ما يمنع ، بل هناك ما يدفع لكى تستأنف
مسيرتنا الحضارية في عالم ينقصه ما نملك ، الشيء الكثير .

فالدولة المسلمة دولة حضارة وتقدم ، وهى مسئولة عن تقدم
الحياة مثل مسئوليتها عن دين الله .

يقول مؤلف « الاسلام قوة الغد العالمية » :

« ان قوة القرآن في جمع شمل المسلمين لم يصيبها الوهن ،
ولم تنجح الاحداث التي مرت بالمسلمين في القرون الاخرة
في زعزعة ثقتهم به كقوة روحية .

« ان الروح الاسلامية مازالت تسيطر على تفكير القادة
ومشاعرههم . وستظل هناك مادام ثمة شعوب اسلامية
ربطت مصيرها بمصير الاسلام ، واعتقدت ان الرباط
الجامع بين اجناسها هو الاسلام .

« ان روح التعاطف والتوادد بين المسلمين هو السبب
الرئيسى في تجميع القوى الوطنية على طريق « القومية
الاسلامية » . . . وانه من الممكن للمسلمين ان يتقدموا في
العلم والتكنولوجيا كما تقدم الاوروبيون وهم يومئذ لن

يكونوا بحاجة الى رباط يجمع شملهم سوى الاسلام وهو قائم فعلا ولم يفقدوه بعد » .

ان عظمة الاسلام الفريدة ماثلة في انه يسير بالتقدم المادى والتقدم الروحى في طريق واحدة . وهذا يجعل مستقبله مستقبلا للبشرية كلها . . ذلك ان الحضارة الغربية المعاصرة تعاني هذه الامة الثالثة . وهى ان التقدم المادى يضى هادرا وسريعا بينما تقدمها الروحى متخلف جدا وبطىء كذلك .

ويوم يكشف الوعي الانسانى حاجته الى المواءمة بين تقدمه المادى والروحى سيجد الاسلام في انتظاره يمنحه حضارة المادة وحضارة الروح ، ويهديه سواء السبيل .

وهذه حقيقة يجب على المسلمين ان يستعدوا لتقبلها وحمل تبعاتها .

والدولة المسلمة في عصرنا هذا مطالبة بان تصادق اكثر واكثر حركة العلم .

ونحن نعنى بحركة العلم ذاك التطور الخلاق الذى يقطع الحياة وثبا مخلصا وراءه العمى الذين لا يبصرون ، والصم الذين لا يسمعون ، والمقعدين الذين لا يواكبون ركبهم ولا يتابعون خطاهم .

ولا يعنى مساندة حركة العلم والحضارة ان نفقد شخصيتنا الاسلامية وتقاليدنا ، ونذهب نقلد الغرب في شكايات الحياة المنحلة ومظاهرها الماجنة والرخيصة . بل يعنى ان نحيا في مستوى تعاليمنا

وديننا وتقاليدنا حياة متحركة ومتجددة وملتقىة مع روح العصر
وانجازاته الجادة .

على الدولة المسلمة اليوم — كل دولة — ان تتسلح بأسلحة
العصر لا عسكريا فحسب ، بل في كل مجالات الحياة . .

عليها ان تقوم بتصنيع مواردها وبلادها ، وان تأخذ بحظ وان
من أحدث ما وصل اليه العلم والتكنولوجيا اولا بأول ، وان تتيح
لشبابها فرصة التزود الكامل بالمعرفة والعلوم . ونحن في هذا لن
نكون مقلدين لغيرنا ، بل سنكون قد استأنفنا حضارتنا التي غدت
العالم من قبل وعلته لغة الحياة .

علينا نحن المسلمين ان نفيد من كل فرص التقدم النظيف دون ان
نسلم رقابنا للاغلال ، وديننا للضياع ، وروحانيتنا للجفاف .

علينا ان نذكر ان دورنا مع حركة التاريخ وصنع الحضارة لا يزال
قائما . وان الاسلام الذي نحمل لواءه لم ينته ولن ينتهى دوره في
ترشيد الحياة وهداية البشر ، كما لن تنتهى حاجة البشرية اليه .

وعلينا ان نعبق ايماننا بأن الاسلام :

دين ، ودولة . .

حق ، وقسوة . .

ثقافة ، وحضارة . .

عبادة ، وسياسة . .

ملحق

بعد الفراغ من هذا البحث يطيب لى ان اضرب مثلاً ، واقدم
نموذجاً للدولة المسلمة وللحاكم المسلم .

ولن اختار هذا النموذج من بين الخلفاء الراشدين . فقد يقال :
تلك امة قد خلت . . وذلك طراز شهود الوحي ورباه الرسول .
ساختار النموذج من العصر الاموى . ذلك العصر الذى شهود
انحرافات بالغة ، والذى تنبأ له الرسول بأنه سيكون نهائية عصر
الخلافة الراشدة وبداية عصر الملك العضوض .

ساختار « عمر بن عبد العزيز » . . !!!

الرجل الذى حاول نقل عصر الوحي بمثله وفضائله الى دنيا
هائجة مائجة ، مفتونة مضطربة ، متلفعة بالظلم والقهر ، متعفنة
بالتحلل والترف . ثم نجح في محاولته نجاحاً منقطع النظير . . !!

لقد جعل من الملك العضوض الذى شاده الامويون عبر ستين
عاماً - قبل مجيئه - خلافة اوابة ، بارة ، عادلة ، تمثل كل فضائل
وسمات عصر النبوة والوحي .

ومتى . . ؟

ليس في عشرين عاماً ، ولا في عشرة اعوام . . بل في عامين ،
 وخمسة اشهر ، وبضعة ايام . . !!!

وهذا النموذج يرينا « روح » الدولة المسلمة و « ضميرها »
كما يرينا شكلها الذى كان مثالياً بالنسبة لعصرها .

بيد أنه لا يرينا الشكل « النهائي » للدولة المسلمة .. ففى عصرنا هذا لابد للشكل أن يختلف بقيام المؤسسات الدستورية ، والمجالس النيابية التى تضبط دور الحاكم ، كمنفذ لاحكام الله ، ووكيل عن الامة ولابد من صحافة حرة ، ومعارضة حقيقية وفعالة ، يخشاها الحاكم ولا تخشاه ؛ ويتلمس عندها الصواب والصدق وسواء السبيل .

ان النموذج الذى يقدمه لنا « عمر بن عبد العزيز » يرينا فى اية آفاق رغبة شامخة تحلق الدولة ويحلق الحاكم حين يكون الاسلام الحق هو المنهج ، وهو القدوة ، والامام .. !!

ولن اقدم هذا النموذج فى كتابة جديدة . بل ساستمر فصلا من كتابي « معجزة الاسلام : عمر بن عبد العزيز » ذلك الفصل الذى كلن الكتاب قد تضمنه تحت عنوان « المنهج » ..

راجيا أن يكون تنمة مباركة لحسبتي هذا عن — الدولة فى الاسلام — ..

• • •

النهج

كتب اليه واليه على خراسان يستأفنه في أن يرخص له باستخدام
بعض القوة والعنف مع أهلها ، قائلا في رسالته للخليفة « انهم لا
يصلحهم الا السيف والسوط » ..
فكان رده التقى الحازم :

« كذبت .. »

بل يصلحهم العدل والحق ، فابسط ذلك فيهم ، واعلم
ان الله لا يصلح عمل المفسدين . !!!

* * *

العدل ، والحق .. !!

بهما وعليهما سيقوم منهج أمير المؤمنين ، وعلى طريقتهما اللاحب
المستقيم ، ستمضى خطاه .. أخذا معه على ذات الطريق جميع
الناس : أمراءهم ، وعلمتهم .. اغنياءهم ، وفقراءهم . اقوياءهم ،
وضعفاءهم . !!

والخليفة ، الذي نراه دائم البكاء ، بل النحيب . كما ذكر الله
واليوم الآخر .. والذي ينتفض تحت وقع ثقاه انتفاضة العصفور ،
حتى لنحسبه لا يصلح لغير الصومعة يتحنث فيها ويتعبد .. !!

هذا الخليفة ، سيبهزنا الآن ونحن نطالع منهجه واسلوبه في
الحكم حيث تطل علينا من وراء دموعه المثالة روح عالية تناضسل في
جهادا مستبسل لبلوغ اسمى آفاق العدالة والحق .. وحيث تطل علينا
كذلك بصيرة نافذة لا يفلت من ضيائها شيء ، واردة حازمة لا يهولها
صعب ، ولا يجفلها خطر ..

ونجاة سنرى العينين السابحتين في دموعهما دوما ، تحديقان
كعيني الصقر .. وترسلان بريقا أخاذا ، يقنع كل من يتلقاه انه امام
هينين ثاقبتين ليس الى خداعهما سبيل . . . !!

* * *

ان المصاعب المتطاولة ، والاضطار المحسدة ، والمؤامرات
المتساقطة لن تزيد الارادة الراضعة لواء المسدل والحق
الا تقدما ومضاء .

فلتغن العواقب لنفسها .. اما هو فلن يبالي بما كان ولا بما
سيكون منها .. بل سيضع يمينه في يمين الحق ، ويمضي معه الى حيث
يدمدمان معا على مظالم وظلمات الاعوام الستين التي سبقته في الحكم
الأموى .. والى حيث يجعلان ظلماتها نورا .. وهجرها غردوسا ..
وترفها قناعا .. وانحللها ورعا .. واستعلاها تواضعا .. وقهرها
رحمة .. ورعبها امنا .. !!

وبين يدي عزمه الرباني القدير ، راحت كلماته تفرغ اسماع
الخطرة ، والتصدى :

« والله ، لو لم ينهض الحق ويدحض الباطل الا بتقطيع
اوصالي واعضائي ، لامضيت ذلك وأنا سعيد » . . . !!
« والله ، لو لبثت فيكم خمسين عاما ، ما اقيمت الا ما
اريد من العدل » . . . !!

فلنتابع منهجه لنرى ..

ولكن علينا الا ندع التفاصيل الكثيرة تشغلنا ببهرها عن الاسس
والتواعد .

وعلينا أن نقتصد في ذكر الوقائع والمشاهد التي تحكى خصائص
المنهج وسماته ، حتى يبنى علينا هذا التركيز في الرؤية تركيزا مماثلا
في نشوة العقل وغبطة الروح ..

أى أننا سنكتفى من المنهج بنقاط ارتكازه ومحاوره التي تدور
حولها بقية التطبيقات والتفاصيل .

وتتلخص هذه المحاور في : —

* نظريته الى دور الدولة ووظيفتها ..

* نظريته الى دور الشورى ووظيفتها ..

* نظريته الى دور المال ووظيفته ..

* موقفه من وحدة الامة وسلامتها ..

* أسلوبه في العمل ..

* * *

— فأولا : الدولة قسدية ..

ان الحكام الذين يفرضون سلطان القانون بسلطان الدولة
لا ياتون امرا مذكورا .. فذلك سنة مألوفة معتادة . ان تحمى القوة
القانون .

لها الحكام الذين يحمون القانون وينفذونه بالقسدية ، فأولئك
الذين يجاوزون المألوف المعتاد الى الخوارق والمعجزات .

ولقد كان « ابن عبد العزيز » واحدا من هؤلاء .

لقد كانت الدولة قبل مهده تحيا خارج وظيفتها وخارج حقيقتها ،
اذ تركت مواقع عملها واستسلمت للغواية والهوى .

والدولة عنده تتمثل في كل الاجهزة العاملة ، لكن ياتي في المقدمة

دائما :

- أ - الخليفة بوصفه رئيس الدولة .
- ب - الولاية بوصفهم حكام الاقاليم .
- ج - القضاء .
- د - ائماء بيوت المال .

والخليفة - أي خليفة - وان وضعته وظيفته ومسؤولياته على رأس الدولة ، غانه يظل عاجزا عن أداء دوره ما لم يقف معه في مستواه أو قريبا من مستواه ولاته وقضاته وأمنساؤه على الاموال العسامة .

ها هو ذا « عمر » يقول :

« ان للسلطان اركاننا لا يثبت الا بها .. »

* « فالوالي ، ركن .. »

* « والقاضي ، ركن .. »

* « وصاحب بيت المال ، ركن .. »

* « والركن الرابع ، انا » .. !!

واذن ، ملكي تكون الدولة قدوة في حمل دين الله وحقوق الناس ، لا بد ان تتشكل هذه القدوة من سلوك هؤلاء الاربعة مجتمعين . الخليفة ، وولاته ، وقضاته ، وخزنته .

ولكي تكون الدولة قدوة ، لا بد ان تكون بمسؤوليها جميعا ، وعلى رأسهم امير المؤمنين ، طليعة العمل ورائدته ..

وهكذا راح « عمر » يضع الدولة كلها وهو على رأسها في مكان القدوة ، حاملا وحاملا معها كل ما تلقيه القدوة من مسؤوليات ، وبإذلا كل ما تتطلبه من تضحيات .

وقبل ان يأمر وولاته ، وقضاته ، وخزنته ، بدأ بنفسه .

لقد تلونا من قبل ، كلمته العظيمة :

« لست الا كأحدكم . . »

غير انى أثقلكم حملا . . »

وهنا ، نرى طريقته فى وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الحاسم ،
الحازم ، الفريد .

لقد كان دخله السنوى حتى اليوم الذى ولى فيه الخلافة اربعين
الف دينار . . هى حصيلته من مخصصاته كأمر أموى . . ومن الارض
التي كان يملكها . . ومن نصيبه الوغير من ميراث ابيه عبد العزيز
بن مروان .

والآن ، تتفتح بصيرته ، على الحقيقة العميقة ، غيرى ان هذا
الثراء الفاحش الذى يملكه أمراء بنى مروان — وهو معهم — لم
يبلغوه بعرق الجبين . . وما هذه الثروة المتركرة فى ايدى حفنات من
الأمراء والسادة ، الا حقوق الملايين واقواتها سلبت منها بغير حق ،
وبغير سلطان . . !!

ومن غوره ، اتخذ قراره الحاسم بالغاء كافة مخصصات الأمراء ،
ومخصصات حرسهم وخدمهم ، وقراره بنزع الاقطاعيات الزراعية
منهم جميعا ، وردھا الى بيت المال . .

ويدأ بنفسه ، فتخلى عن جميع املاكه وامواله !! حتى ارض
« فدك » فى « خيبر » وكانت خير ممتلكاته واثمنها ، ولم يكن احد
أقطعها اياها ، بل ورثها من ابيه .

لكنه سأل نفسه ومن أين جاء بها ابوه . . ؟ !

لقد اغاءها الله على رسوله عليه الصلاة والسلام يوم خيبر ،
فخصصها لابناء السبيل . وظلت كذلك حتى ملك الامر معاوية فوهبها
لمروان . . ومن مروان . وصلت الى ابنه « عبيد العزيز » والد
« عمر » .

نقول : حتى هذه الارض ، تخلى عنها وكتب لواليه على المدينة
يامره ان يضمها للملكية الدولة ، وان يصرف ريعها ونتاجها حيث كان
يصرف على عهد الرسول وخلفائه . .

لس ذلك فحسب . . بل لقد تنازل عن كل درهم في راتبه
المخصص له كأمير للمؤمنين . . !!

لقد اكتفى من دنياه كلها ، ولدنياه كلها ، بقطعة ارض صغيرة
كان قد اشتراها بحر ماله ، ولم تكن تغل اكثر من مائتى دينار في
العام ، راح يعيش بها هو واسرته الكبيرة .

مائتا دينار في العام ، لرجل كان دخله — منذ ايام لا غير —
اربعمين الف دينار . . !!

مائتا دينار ، لحاكم اعظم ، واكبر ، واغنى امبراطوريات عصره .
وعاله ، يعيش بها طول العام وعرضه ، وتعيش معه أسرته التي
كانت هي الاخرى — منذ ايام — لا غير ، تخب في النعيم خبسا . .
وتعب من الباهج عيا . . !!

ولكن ، اى باس !!

اليس قد رفع الحق شريعة والعدل منهاجا ؟

فليكن حسبه الا تسقط الراية من يمينه . . وليكن حسبه ان
يخلق بها في مستوى تتقطع دون بلوغه الاتفاس . . !!

كل أرضه تركها للدولة ..

كل ثروته النقدية ، دفعها الى خزنة الدولة .

بل لقد جمع ثيابه وحطه الراقصة ، وحلل زوجته واولاده ..

ثم جمع مراكبه وعطوره ومتاعه : ثم دفع ثمنها الذي بلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار الى بيت المال .. !!

ثم حرم نفسه حتى حقها المشروع في راتب الخلافة الذي كان يستطيع ان يتنازل عن نصفه او عن ثلثه ، لكنه رفضه جميعا الى آخر درهم منه .. وراح يعيش بمائد أرضه الصغيرة — مائتي دينار في العام — بواقع ثلاثة ارباع دينار في اليوم ، لامير المؤمنين ، وزوجة امير المؤمنين ، واولاد امير المؤمنين .. !!

أما كان يكتفي ان ينفرد هو بأعباء القدوة ، تاركا أهله واولاده يحيون ولو في مستوى حياة أوساط الناس .. !!

انه يعتبر هذا — لو حدث — احتيالا على المسؤولية ، وهروبا من تبعات القدوة ، ويرى النار تمد اليه السسنتها اللاهبة ، لتطوقه حسايا له وعقابا .. !!

ومن ظن أننا نبالغ في التصوير ، ونسرف في صبغ الالوان ، فليطالع هذه الواقعة :

لقد عاد يوما الى داره بعد صلاة العشاء ولح بناته الصغار . فسلم عليهن كمادته ، وبدلا من أن يسارعن نحوه بالتحية كمادتهن . رحن يغطين أفواههن بأكفهن ويتبادرن الباب .

فقال : ما شأنهن .. !!

فاجيب : بانه لم يكن لديهن ما يتعشين به سوى عدس وبصل .
فكرهن ان يشمن من افواههن ريح البصل فتحاشينه لهذا ..
فبكى امير المؤمنين ، وقال يخاطبهن :

« يا بنساتى ... »

ما ينفعمكن ان تعشسين الالوان والاطسايب ، ثم يذهب
بابيكن الى النار .. ؟؟ .. »

وترى احدى بناته الصغار صديقة لها تزين اذنيها بلؤلؤتين
جميلتين ، فترسل احداهما الى ابوها ضارعة ان يشتري لها مثلها .
ويدعو امير المؤمنين خادمه ، ويأمره ان يجيء بجمرتين ملتتهبتين
... ثم يطلب ابنته فيقول لها :

« ان اسنطعت ان تجعلى هاتين الجمرتين فى اذنيك ،
جئتك بلؤلؤتين كهذه » .. !!

ان مسؤولية القدوة — اذن — لا تنحصر فيه ، هو الخليفة
والحاكم .. بل — وحسب منهجه وتقديره — تنال اهله جميعا ،
حتى بنياته الصغار .. !

وهكذا راح يحملهم على التضحية فى سبيل المسؤولية والقدوة .
اقترب يوما من زوجته غاطمة ، وقال لها :

« انك لتعلمين من اين اتسك ابوك — عبسد الملك بن
مروان — بهذه الجواهر ، فهل لك ان اجعلها فى تابوت ،
اضعه فى اقصى بيت المال ، وانفق ما دونه ، فان خلصت
اليه انفقته فى حاجات المسنين » .. ؟؟

ولم يكن قد بقي لفاطمة سوى هذا الحلى وهذه الجواهر ، وهي
عزيزة عليها ، لانها هدية ابيها لها في عرسها وزفافها ..
ولكنها لا تجادل زوجها « القديس » حتى في هذه .. وتجرد
بمنها نحرها ومعصمها ، في غبطة ورضا .. !!

* * *

ويغادر — امير المؤمنين — قصور الخسلافة ، ويأوى الى دار
بتواضعة ..

ثم لا تشهد هذه الدار ايقاد النار الا لهما ..
ويأخذ على نفسه العهد الا يستحدث لنفسه شيئا من اشياء
الدنيا ومتاعها حتى يلقي ربه ..

يحدث ابن عياش ، فيقول :

« كان لعمر مرقتان يرقى عليهما من صحن داره الى
حجرته ..

« فتهدمت احدى المرقتين ، فاعاد بناءها رجل من اهله .
« فلما جاء « عمر » ووجدها . سال : من صنع هذا .. ؟
قالوا : فلان . قال : الى به ..

« فلما جاء قال له عمر . ويحك انفسيت على « عمر » ان
يخرج من الدنيا ولم يضع لبنة على لبنة .. ؟!

« والله ، لولا ان يكون هدمى لها افسادا بعد اصلاح
لهدمتها ورددتها الى ما كانت عليه .. » !!!

* * *

ويدخل عليه في داره احد خاصته المقربين ، فيجده بركن منها
تغطيه الشمس ، وقد دثر جسمه كله في ازار .. وحسببه الزائر
مريضا ، فسأله ما باله .. ؟

فاجاب امير المؤمنين :

« لا شيء ، غير انى انتظر ثيابى حتى تجف .. »

قال زائره : وما ثيابك يا امير المؤمنين .. ؟

قال عمر : قميص ، ورداء ، وازار .

قال صاحبه : الا تتخذ قميصا آخر ، ورداء ، وازارا .. ؟

قال الخليفة : كان لى ، ثم بليت .. !!

قال الزائر : الا تتخذ سواها .. ؟؟

وهنا شرقت كلماته بدموعه ، وراح يجهش بالبكاء مسندا
جبهته على راحتيه ، مرددا آية القرآن الكريم :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في

الارض ولا عسادا ، والعاقبة للمتقين » .. !!!

ولما كان يريد للدولة في عهده ان تكون رحمة وحنانا ، فقد راح
يهزق عنها كل ائمة الصلف والكبر والتمايز .

وايضا ، بدأ بنفسه ، فمنع الحراس ان يسيروا بين يديه . بل
منعهم كما منع الناس جميعا ان يقوموا له حين يطلع عليهم ، وقال لهم :

« انما يقوم الناس لرب العالمين » !!

وناداه يوما رجل من المسلمين قائلا : « يا خليفة الله في
الارض » .. فاخذته الرعدة الصالحة ، وصاح في الرجل :

« مه .. »

« انى لما ولدت اسميتى اهلى « عمر » ، فلو ناديتنى
« يا عمر » اجبتك .. »

« ولما كبرت اخترت لنفسى كنية ، فكنيت « ابا حفص » ،
فلو ناديتنى « يا ابا حفص » اجبتك .. »

« ولما وليتمونى اموركم سميتونى « امير المؤمنين » ، فلو
ناديتنى « يا امير المؤمنين » اجبتك .. »

« اما خليفة الله في الارض ، فليست كذلك .. »

« انما خلفاء الله في الارض رسله وانبيائه » .. !!

ومنع الدعاء له فوق المنابر في خطبة الجمعة . وارسل بذلك
كتايا حازما الى ولاته في جميع الاقاليم ، قائلا فيه :

« مروهم فليصلوا على النبى عليه السلام . وليكن فيه
اطناب دعائهم وصلاتهم .. »

« ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات .. »

« وليستصروا الله .. »

« وليكن دعاؤهم لعامة المسلمين .. »

« وليدموا ما سوى ذلك » !!

* * *

واذا كان قد حمل واهل بيته معه مسؤولية الدعوة على هذا

البحر المجيد والفريد . . اذا كانوا قد حملوها طائعين راغبين ، فان
هذا لا يكفي ، بل لابد ان يحملها ايضا امراء بنى مروان جميعا .
طائعين ان شاعوا . . وان ابوا فكارهين . . !!

لن يدعهم يتبخنون باسمه ، ويتخذون من قرابته ملجأ ومغنا .
اذا كان ولا بد ، فلتكن هذه القرابة ملجأ لهم من اطماعهم
وشهواتهم . . ومغنا بالتزامهم منهج امير المؤمنين .

اما دون ذلك ، فلن تكون دنياهم في عهده كدنياهم قبل عهده .
لن يظفوا طبقة فوق الامة . . ولن يذلف الى قصورهم وجيوبهم
ثقت الدخيل العام للدولة ، كما كان امرهم من قبل ان تهل على الدنيا
ايام الاغر ابن عبد العزيز . . !!

ولقد راحوا بكل ضراعاتهم يحاولون الابقاء على بعض امتيازاتهم
لما غشوا راحوا ينافورون ، ولما أخفقوا راحوا يهددون .

ولكن رجل القدااسة وقف لهم كائقدر ، واحكم وضع الشكائم
على غرورهم واهوائهم ، ثم دفع بهم جميعا امامه على طريق العدل
والحق ، مصفيا ترغهم المنهوم . . !!!

حدث يوما ان ارسل الى كل امير واميرة بقدر من المال ،
يدبرون به امرهم ، ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشنة ، فتنادوا
واجتمعوا ، وقرروا ان يوغدوا اليه مسديقا له يرجوه باسمهم ان
يرفع لهم العطاء .

فكان جوابه لهذا الصديق :-

« والله لقد ندمت على هذا الذي اعطيته لهم ، وانى لاعلم
ان في المسلمين من هو احق به ، واحوج اليه منهم » .

وعاد بمعوثهم اليهم يقرع اسماعهم بكلماته المنذرة ، ويقول لهم :

« يا بني امية ... »

« لا تلوموا الا انفسكم ، فقد عهدتم الى صاحبكم — عبد

العزیز بن مروان — فزوجوه حفيده « عمر بن الخطاب »

فجاءتكم بعمر بن الخطاب ، ملفوفا في ثياب عمر بن عبد

العزیز ، فلا تلوموا الا انفسكم !! »

* * *

ويعود الخليفة ليضع كلتا عينيه على الولاة والقضاة ، والامناء
على الاموال العامة — اولئك الذين سسمعناه من قبل ينعتهم بأنهم
والخليفة معهم يشكلون اركان الدولة والسلطان .

لقد كان يرى أن الولاة ، يحكم كونهم نوابه في حكم الاقاليم . .

والقضاة ، بوصفهم اهل الفصل في مصائر الناس بما يملكون من

كلمة الشريعة والقانون . .

وامناء بيوت المال ، بما لهم من سيطره مباشرة على الاموال

العامة وازواق الناس .

نقول : كان يرى في هذه المناصب اخطر مناصب الدولة واكثرها

ثقلا وحساسية . . كما كان يرى في استقامة امرها المعامل الاول

والاهم لتمكين الخليفة من حمل مسؤولياته في قسطاس وسداد .

وهكذا راح القديس يستكمل سمات القدوة للدولة ، باختيار

ولاته ، وقضاة ، وامثائه في حرص من يختار عاقبته ومصيره !!

ولقد كان من المفروغ منه ، أنه لن يجد من هؤلاء من هو في مستوى ورعه ، وشموخ نسكه وغضائله ، فراح يجتهد في العثور على من يكونون في مستوى رجائه وثقته ..

وسارع ، فعمزل جميع الولاة السابقين الذين عملوا في خدمة المظالم السابقة . ثم ولى مكانهم من اصطفاهم للمهمة الجليلة أمثال : « ابي بكر ابن حزم » و « عبد الرحمن القشيري » و « عدى بن اوطاة الغزاري » وآخرين من طرازهم واخوانهم .

وكان اول ما اوصاهم به ، هذه الوصاة الجامعة الرائعة :

« كونوا في العدل والاصلاح والاحسان ، بقدر من كانوا قبلكم في الظلم والفجور والعدوان » .. . !!

كذلك ، كان اول ما قدم به ولاته للناس هذه الكلمات الاليمية :
« انى قد وايت عليكم رجالا ..
« لا أقول انهم خياركم ، ولكنى أقول : انهم خير ممن هم شر منهم » !!

انه رجل يضع ذاته كلها فوق الميزان .. وان كل حركاته وكلماته وقراراته ، ومشاعره لتتحرك بقدر معلوم . !!

ويمضى ولاته الى اقطارهم ، ويسهرون على مسؤولياتهم في ولاء صادق .. تقودهم على الطريق وتثبت اقدامهم وخطاهم سيرة خليفتهم العادل القديس .. هذه السيرة التي كان اريجها ينتشر انتشار الضياء وعبرها يغوح ويهب هبوب الرياح والبشريات .. !!

لقد راحوا يخطون من كل تقصير يبدو من أحدهم .. وإذا
سولت لاحدهم نفسه ، ثناها من وساوسها بمجرد تذكر خليفة
القديس في حياته الشظفة ، ورقاعه البالية !!!

وراح الخليفة يواليهم برسائله ووصاياهم .. وصية من بعد
وصية وكتابا وراء كتاب ،

لنقرأ واحدا من هذه الكتب :

« .. أما بعد

فإن من ابتلى من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتلى ببليته
عظيمة !!

« فنسأل الله عافيته وعونه ..

« واني أدعوك أن تقف نفسك في شرك وعلانيتك ، عند
الذي ترجو به النجاة من ربك ..

« تفكر ما سلف منك من خطأ فأصلحه ، قبل أن يتولى
أصلحه غيرك ..

« ولا يمنعك من ذلك قول الناس ..

« وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحا في دينهم وأعراضهم .
« وأستر كل عوراتهم ..

« وأملك زمام نفسك تجاههم إذا هربت ، وإذا غضبت !»

* * *

وكما أحسن اختيار ولاته ، أحسن اختيار قضاته ، وأمناء بيوت

الملك .

وأمر هؤلاء وأولئك ، أن يختاروا معاونيهم وموظفيهم من الامناء
على دين الله ، ودنيا الناس .

وراحت اضرواء قداسته وقدرته تتعمالي وتتعاظم حتى كانت
منارات هادية ، وسعت الدولة كلها والامة جميعها بأنوارها الغامرة
وهذاها الوثيق .

— وثانيا : الشورى ضرورة .—

وننتقل الآن الى المحور الثانى من محاور منهج الحاكم القديس
واسلوبه ، لنشهد له تجاه الشورى موقفا غذا يمتاز بالعمق والشمول
لقد أدرك أن كل ما يشيده من دنيا سالحة ، وعالم قويم ، لن
يكون ثبة ضمان لاستمراره وانمائه سوى سياج منيع يصونه ويحميه
وتمثل له هذا السياج فى توسيع قاعدة المسئولية حتى تنظم
اصحاب الحق فيها ، حاكمين ومحكومين .

والسبيل لذلك ، الشورى الخالصة الصادقة . . ويمث رأى
عام ناصح ، وصادق ، وشجاع . ينقد الاخطاء ويسهم فى اصلاحها .

لم يكن عصره قد عرف النظم البرلمانية بعد . . ولكن ديموقراطية
الحاكم مع ذلك كانت تقبين وتفسر كالشمس من خلال اسلوبه فى
الحكم ، وطريقته فى اختيار ولاته وبعثاته ، واستعداده لتقبل النقد ،
وسماع كلمة الحق . ونظرتة الى الامة التى يحكمها ، ومدى ولائه
لحقوقها وحرىاتها .

وبهذا المعيار والمسبار ، يقف « عمر بن عبد العزيز » في هذا
المجال وكأنه نسيج وحده !!

لقد احاط نفسه بالابرار الذين لا يخافون في الله لومة لائم ،
والذين لا يزيغون اقتناعهم ، ولا يلبسون الحق بالباطل ، وان قطعت
منهم الرقاب . .

جمعهم حوله ، يفكرون معه . . بل لقد كان يوصي بعضهم ان
يجلس تلقاءه وهو في مجلس الحكم ، ويضع عينيه المفتوحتين على
حديثه ، وحركاته فان نسي فقال كلمة ، او اتى حركة فيها شبهة من
خطا ، نبهوه على الفور باشارة ، تعارف واياهم عليها . .

* * *

لقد آمن بأن الشورى ضرورة ، وليست ترفا . . وآمن بأنها كلما
اتسعت قاعدتها ، استقام الحكم وشاع الحق ، واستوثق العدل ،
وعاش الناس كما يريد لهم دينهم وكما ولدتهم امهاتهم احرارا .

من اجل ذلك ، راح في سرعة الضوء يخلق رأيا عاما صادقا
امينا في طول الدولة وعرضها .

وراح يوسع الحاكمين والمحكومين وجها لوجه امام مسئوليتهم
المشتركة ، بل الواحدة في حوض الخطا والتزام الصواب .

فيكتب للولاة قائلا :

« انكم تعدون الهارب من ظلم امامه عاصيا . .
« الا ان اولاهما بالمعصية الامام الظالم » !!

ثم يكتب للناس في شتى الاقاليم قائلا :

« اى عامل من عمالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب
والسنة ، فلا طاعة له عليكم . وقد صيرت امره اليكم ،
حتى يراجع الحق وهو ذميم . . !! »

ويرسل الى احد ولاته قائلا :

« قد كثر شاكوك . . وقل شاكروك . . غابا اعتدلت ،
واما اعتزلت » !!

هكذا رفع سلطة الشعب في وجه سلطة الحكم ، واسلم نواصي
ولاته وعماله للرأى العام يقودهم على طريق الحق طائعين او كارهين .
ولكى يدمم هذه السلطة ، فتح ابوابه على مصاريعها لكل شك
او متظلم من حاكمه وواليه . . وارسل منشورا موجزا الى جميع
الاقطار :

« من ظلمه امامه مظلمة ، فلا اتن له على » . .

اى ليقتحم على دارى ، غير مفتخر اذنا ، وغير واقف ببلب !!

* * *

وانه لييهونا اسلوبه الفريد في بعث الرأى العام الشجاع ،
وتزكية حرية النقد ، وشد زنادها الى اقصاه .

ففى سبيل ذلك نراه يرسم من بيت المال جوائز مغرية لكل من
يكشف عن خطأ ، ويهدى الى صواب .

ولنطالع في اجلال ، المنشور الذى كتبه ، ثم امر ان يقرأ على
الناس في المواسم والمحافل والجامع :

« أما بعد .. »

فأيما رجل قدم علينا في مظلمة نردها ، أو أهر يحيى الله
به حقاً ، أو يميت باطلاً ، أو يجيء بخير . فله منا ما بين
مائة دينار الى ثلاثمائة دينار . بقدر ما يتكأده في ذلك
من طول السفر وبعد الشقة » .. !

اليس عجبا هذا الذي نقرأ ونرى .. !!

الا ، وان اعجب من ذلك ، ان بطل هذا كله رجل لم تسكن
بيئته ولا عصره بقادرين على تشكيل بنائه ..
لكنها صبغة الله .. ومعجزة الاسلام .. !!

ولكم كان صادقا حين قال :

« لو وكلني الله الى نفسي لكنت كغيري » .. !!

لقد راح يضرب المثل الاسمي وانقدوة الباهرة في تقبل النقد ،
وهو الذي لم يعرف الناس له ... خلال خلافته كلها ... خطأ واحداً
يستأهل النقد والتفنيد ..

ولقد كانت الغبطة تملأ روحه حين يجد من عامة الناس من يقول
له : الى اين ؟ ولماذا ؟ !

هنالك يربت على كتفه ، ويدنيه منه ، ويقول له :

« زدني يا أخى ، جزاك الله خيراً » !!

انه يلتمس الحكمة والصواب وراء السنة الصادقين حتى حين
يكون احدهم طنفسلا .

قدم عليه وفد من المدينة يوما ، وتقدم من بينهم غلام صفر
ليحدث باسمهم ويعرض قضيتهم . فتملاه أمير المؤمنين ، وقال له :
« يا بنى : دع القول لمن هو أسن منك » .

ويبدو أن الغلام العربى الاصيل كان يحمل نبوغا مبكرا ، فقد
اجاب الخليفة من فوره :

« يا أمير المؤمنين .. »

المرء بأصغريه : قلبه ولسانه .. »

« ولو كان الامر بالسن ، لكان فى المسلمين من هو احق
بهذا الامر منك » .. !!

وفجأة ، تنثال دموع الغبطة والفرح من عيني القديس ، ويتهلل
وجهه ، ويهتف بالغلام :

« صدقت .. صدقت .. »

« عظمى يا بنى .. !! »

وان احد الناس ليقترح مسجد المدينة يوما شساهرا سيفه ،
يسب ويشتم أمير المؤمنين على ملا من الناس ، وعلى مسجع من
المدينة وحاكمها ، فيعقله الوالى .. ويرسل لامير المؤمنين بأمره
ويقول فى كتابه : « لقد هممت ان اقتله » .

ولا يكاد عمر يقرأ الرسالة حتى يجيب عليها فورا :

« اما والله ، لو أنك قتلته لقتلتك به » .. !!

ويقتحم مجلس الحكم ذات يوم رجل من عامة الناس ، رافعا
عقيرته فى وجه الخليفة بكلمات تثير غيظ الحاييم .

فما يزيد أمير المؤمنين علي أن يقول للرجل :
«لعلك أردت أن يستغزني الشيطان بعزة السلطان؛ فأتال
منك اليوم في الدنيا ما تقاضاه مني غدا عند الله
«ولسكن ، لا ..
« قم عفا الله عنك » ... !!

* * *

ومن لذكى وأبلغ ما أداه — ابن عبد العزيز — في سبيل انهاض
رأى عام أمين علي مسئولياته وقادر عليها . . . حسر ذلك المد الطاغى
لدولة الشعر والشعراء التي كانت قائمة يومذاك .

لقد رأينا فيما سلف من حديث كيف اصطنع الامويون الشعراء
لتزييف الحق ، وتمكين سلطانهم علي حساب كل القيم والأخلاقيات ،
حتى لقد كانوا عتبة كزودا في سبيل معرفة الحقيقة ورؤيتها . . . والآن
يتقدم البطل القديس ، مطلقا رياح الحقيقة وراء هذا الضباب فتكنسه
وتبدهه ، وتترك آفاق المعرفة نظيفة يقية مشرقة بنور الحق وحده . .

لقد وقف يخطب الناس فقال :

- « من أراد أن يصحبنا ، فليصحبنا بخمس أو ذليفارقتنا . .
* يرفع اليها حاجة من لا يستطيع رفعها . .
* ويعيننا على الخير بجهد . .
* ويدلنا على ما لا نهتدي اليه من الخير . .
* ولا يغتابن عندنا احدا . .
* ولا يعرضن لما لا يعنبه . . »

ومن الدلالة الطريفة والبالغة ، ان جميع كتب التاريخ التي تنقل
هذا الخطاب ، تتبعه بقولها :

« فانفض عنه الثمراء والخطباء ،
وثبت معه الزهاد والفقهاء .. !! »

اجل .. فمعظم شعراء عصره ، وعلى راسهم — الاخطل ،
والفرزدق ، وجريير ، لم يكن لهم مع هذه الخمس ولا مع واحدة منها
رحم ولا قرابة .. !!

فهم اما مادحون بغير حق .. واما هاجون بغير حق ايضا .
وهم في كلتا الحالتين يحرمون الراى العام رؤية الصدق بما
يتشرون من اذليل وبهتان .

والآن يجيئهم رجل عظيم ، لاحاجة به اليهم .

فليست له عداوات ، يحتاج للشعر في تاجيجهها ..

وليس له طموح يحتاج للشعر في قرع الطبول له ..

وليست له شهرات يحتاج للشعر في تزيينها ، ولا اخطاء يحتاجه
لتبريرها ..

وليس له بالسلطة ولىع ، فيحتاج للشعر في حمايتها واستبقائها .

ثم انه لا وقت لديه ، ولا وقت لدى امته لهذا الهذر العريض

الذى يلا به الشعراء ساحة العصر الاموى كله .

وهكذا جمع عزمه ، وطرد الشعراء عن بابيه ، ولم يعد احد منهم

يتلغز بجرهم واحد من اموال الامة ، مكافأة على مدح او اتقاء لهجاء .!

وداح — أمير المؤمنين — يشرف بنفسه على امداد الراى العلم
بكل الصدق ، وبكل الحقيقة عن طريق منشوراته التى كان يرسلها
للولاة ، ويبعث بها الى شتى الاقطار .

ولقد بدا بدحر تلك الفاحشة التى كان الحكم الاموى يمارسها
في سفالة . وهى لعن الامام على كرم الله وجهه على المنابر .
وامر ان يقرأ الخطباء مكان الكلمات الائمة . . . تلك الايسات
الطاهرة :

« ربنا اغفر لنا ، ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا
تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا انك رؤوف رحيم »

« ان الله يامر بالعدل والاحسان ، وايتاء ذى القربى
وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »

* * *

لقد وضع الكذب ، ورغع الصدق . .

ودحر الباطل ، وآزر الحق . .

وكان ذلك اسهاما فعالا في انهاض راى امام حصيد وامين . .

وامير المؤمنين « عمر » لا يدرك عظمة الشورى وقيمتها ادراك
حاكم عادل صالح فحسب . . بل انه كذلك ليدرك جوهرها ادراك
فيلسوف .

فهو لا يرى فيها مجرد تنظيم عادل لعلاقة السلطة بالامة، وتبادل
المسئولية تجاه الدولة والمجتمع . . بل يمضى في اتجاه التحليل النهائى

لجوهرها ووظيفتها ، ليرى ذلك بمثالا في ظفر كل فرد من الناس بحقه في اختيار اقتناعه . . وحق هذا الاقتناع في التعبير عن نفسه . في غير زيف او غموض .

ذلك ان الناس حين يزيفون اقتناعهم بسبب رغبة ، او رهبة ، فانه يستحيل في نفس الوقت ، ولتفس السبب معرفة آرائهم .

ومادامت الآراء الصادقة هي مادة الشورى واداتها ، فان اختفاء هذه الآراء اذن ، يعتبر وادا للشورى والغاء لمهتها .

وهنا تظل علينا عظمة القديس « عمر » وهو يضع اقتناع الناس حتى حين يخالفهم ويخالفونه . . موضع القبول والتقدير .

والوقائع التي تحكى ولاءه الوثيق لحرمة الاقتناع تزدهم بها المشهور التسعة والمعترون التي قضاه خليفة وامام . . لكننا نختار منها هذه الواقعة التي تكاد تعطينا التعبير النهائي لهذا الولا .

لعلنا نعرف الكثير عن الخوارج الذين اتشبقوا على الامام على كرم الله وجهه ، حتى اغتاله واحد منهم . . هؤلاء الذين تحولوا بعد ذلك ، وخلال العصر الاموى الى فرق كثيرة ، حملت سيوفها وخاضت ضد الدولة معارك كثيرا ذهب منهم خلالها الوف الضحايا .

وبالاضافة الى نشاطها المسلح هذا ، غسدت كان لبعضها آراء وعقائد لا يزكيها قرآن ولا سنة .

ومع ذلك كله ، نرى الخليفة العابد الاواب لا ينسى حتى في وقتهم هذه ، حقهم في ان يكون لهم اقتناعهم ، ثم لا ينسى واجبه في احترام هذا الحق لهم ، وواجبه في اعطائهم فرصة التعبير عن رأيهم بصوت

مرتفع ، مادام نشاطهم لا يتحول الى عمل ارهابى يستهدف سفك دماء
الآخرين الذين يخالفونهم في اعتقادهم واقتناعهم .

بل اننا سفراء يرى بخصاصته الباهرة ، ان السبيل الامثل
لصرفهم عن التآمر والارهاب ، هو رفع الغطاء عن البخار المحبوس ،
وتمكين الراى الحبيس المكبوت من الانطلاق ، قبل ان يتحول داخل
نفس صاحبه المقهورة الى حقد موتور ، وقذيفة رعناء .. !!

وهكذا ، لا تكاد احدى تلك الفرق تتحرك في الايام الاولى لخلافته
مستأنفة تمردها المسلح ، حتى يرسل الى زعيمها هذا الكتاب :

« اما بعد ... »

« فقد بلغنى أنك خرجت غضبا لله ولرسوله .. ولست

أولى بذلك منى .. »

« نهلم انظرك .. »

« فان يكن الحق معنا ، تدخل فيه ، وان يكن الحق معك ،

نراجع انفسنا وننظر في امرنا .. !! »

ويقرا الزعيم الثائر كلمات «القديس» فيخجل من نفسه ، ويلقى
سلاحه . ويرسل مبعوثين الى عاصمة الخلافة ، يجريان مع الخليفة
حوارا حول ما بينهما من قضايا وخلاف . ويجرى الحوار بينهما رائعا ،
سادعا ، تتجلى خلاله موهبة « ابن عبد العزيز » في رؤية الحقيقة ،
وتوجيه المنطق ، وامتلاك الالفظة والعقول ..

ثم تكون عاقبة هذا الموقف العظيم ، ان تلقى تلك الفرقة
التمردة سلاحها ، بعد ما تبينت انها في عصر رجل جديد ينتمى لعصر

النبوة والوحى .. رجل يخجل الشيطان نفسه ان يتسغب عليه ، او يتحداه .. !!

على ان لهذه الواقعة — رغم دلالتها المفيضة — مثيلا آخر يكمل الصورة التي ترسم ولاء هذا الخليفة العظيم لحرية الراى وحسرة الاقتناع .

فهو على الرغم من معرفته بفساد الكثير من منطلق الخسوارج وحججهم ، لم ير القوة قط سبيلا لدحض هذا المنطق واسكاته — بل راي ان قيام منطق اهدى ، وحجة اوضح واصدق ، هو السبيل لظهار الحق واخماد الباطل .

وهكذا نلتقى به ، وقد قامت فرقة اخرى من الخسوارج — هم « حرورية الموصل » — يسيحون في البلاد ناشرين آراءهم وافكارهم . ويكتب اليه حاكم الموصل ، يستأذنه في جمعهم واسكاتهم .. :

اقول : نلتقى بأمر المؤمنين يجيب واليه فيقول :

« اذا راوا ان يسيحوا في البلاد في غير اذى لاهل الذمة .. وفي غير اذى للامة .. فليذهبوا حيث شاءوا .. »
« وان نالوا احدا من المسلمين ، او من اهل الذمة بسوء ، فحاكمهم الى الله .. »

بالله ، ما اعدله .. وما اروعه .. !!

انه لا يرى لنفسه حقا — اى حق — في الحجر على آراء الآخرين ولا الوصاية عليها .

وهو كحاكم — لا يرى لنفسه أى حق فى التفتل الا حين يواجهه خطر مسلح يتهدد سلامة الدولة والامة .

اما دون ذلك ، فلكل رأى حرمة ، ولكل اقتناع حقه وحرية . وهذا النهج الراشد السديد ، هو الذى مكن للشورى فى عهده تمكينا تكاد تقطع دون بلوغه أنفاس كثير من الديموقراطيات . .

ولطالما قالوا له يومئذ : ان هؤلاء الخوارج ينشرون بين الناس افكارا زائفة ، ويلبسون الحق بالباطل ، وان تركهم يجوبون البلاد بعقائدهم هذه ، عمل ينفر بسوء مأب .

فلا يزيد القديس العادل على ان يذكر محدثيه ومحرضيه بأيات القرآن الكريم التى نهى الله فيها رسوله عن ان يسوس ضمائر الناس بالقهر والبطش :

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . . ؟

« وما أنت عليهم بجبار » . .

« انما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » .

ولقد وقفت المواقب بجانبه ، واثبتت صدق رايه ونكاه تقديره : فالخوارج الذين لم يضعوا سلاحهم يوما واحدا منذ حكم معاوية ، حتى سليمان بن عبد الملك ، والذين لم تزدهم كثرة ضحاياهم الا امعانا فى التحدى وضراوة فى القتال . . نراهم فى عصر هذا القديس الجليل يغمدون سيوفهم ، وينسون طوال عهد خلافته كل ما لهم عند الامويين من ترات ، وثرات . .

— وثالثا : المال وديعة ..

وامام المشكلات الاقتصادية — مشكلات الدخل والتوزيع — التي تحير الدول في كل العصور والازمان ، لم تأخذ « عمر » حيرة ، ولم تمعضله أزمة .

ذلك انه مؤمن بأن الحق والعدل قادران على تدبير امرها اعظم واهدى مما تدبر المع عبريات التنظيم والاقتصاد .

والدولة المسلمة — يومئذ — لم يكن ينقصها المال .. انما كان ينقصها اتباع الحق في تقاضيه .. واتباع العدل في توزيعه ..

وقبل هذين ، معث حرمة الاموال العامة وقداستها في ضمير الدولة ، بكل مسئوليتها ... وفي ضمير الامة ، بكل افرادها ..

ان موقفه من الثروة القومية ، يبدأ من ايمانه بقول الله تعالى :
« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » .

لمصادر الانتاج ، والانتاج ، والثروة .. كل ذلك اذن وديعة الله عند الناس .. دولا ، واما ، وجماعات ، وافرادا ..

ولودائع الله هذه حرمتها التي تنأى بها عن التلف ، والسرف ، والبغى ، والاحتكار .

فاذا اكتسبت هذه الودائع صفة اخرى ووصفا آخر ، نصارت اموالا عامة ، فان حرمتها وقداستها تربيوان وتزدادان .

ذلك ان معنى كونها « اموالا عامة » انها حقوق شائعة وثابتة لكل ائراد الامة .. لكل ارملة فيها وكل يتيم .. لكل مسن وطفل ، ورضيع .. لكل فقير ، وعاجز ، ومريض ..

وهي بهذه المثابة . مثابة انها ، اولا : ودائع الله ، وثانيا : حق
الناس ، جميع الناس . . تتمتع بحرمة بالغة وقداسة وثقى .
و « ابن عبد العزيز » يرى نفسه مستثولا عن اعلان هذه
الحرمة وصيانة هذا الحق .

وانه ليعبر عن ذلك في كلماته الفاصلة :

« انما انا حجيج المسلمين في مالهم » !!

كما يعبر بسلوكه تجاهها تعبيراً يبهر الالباب . .

انه يرسل خادمه يوماً ليسخن له بعض الماء كي يفوضا به في يوم
ثلثات زهريز .

ويعود الخادم مسرعاً بالماء الدافئ ، فيسأله الخليفة : اين
دغاته بهذه السرعة . . ؟

فيجيب الخادم : في مطابخ المسلمين . .

وكان « عمر » قد توسع في انشاء مطابخ عامة للناس ينفق
عليها من بيت المال . .

فعاتب الخليفة خادمه على صنيعه ، ورفض ان يمس الماء جسده
حتى يذهب الخادم الى القائم على هذه المطابخ بثمن تسخين هذا القدر
الضحل جدا من الماء . . !!!

وانا لنعرف تلك الواقعة المتواترة ، حين كان يبائس أمور الدولة
ليلا على مصباح يؤخذ زيتة من بيت المال ، فاذا مرض له اثناء ذلك
طارىء شخصى — ولو كان لا يستغرق سوى لحظات — فانه يطنىء

مصباح بيت المال ، ويوقد شمعته أو مصباحه ، حتى ينتهي من ذلك الطارىء .. !!

ولقد يرى البعض في هذا المسلك نوعا من التزمت المغرق ..
ولقد يرون في اعطاء هذه الشكليات العابرة كل هذا الاهتمام
انورع من رئيس دولة مظمى ، كالدولة التي كان يحكمها — ابن عبد
العزیز — امرا غير مأوف .. وربما غير مستمساغ ..

غير أنهم حين يفكرون على هذا النحو يفوتهم ان الذى كان يحرك
اهتمام الخليفة وورعه ، لم تكن تلك الشكليات ذاتها .
انما هو المعنى الكبير الذى يملأ ضميره ، ويشكل سلوكه تجاه
الاموال العامة وحرمتها وقداستها .

وبعد ذلك يستوى ان يكون هذا المال . عدل درهم من زيت
مصباح .. او ملء حجرة فضة وذهبا .. !!

انه يذكر ، ويذكر الناس دائما بالآية الكريمة :

« ومن يفلل ، يات بما غل يوم القيامة » !!

والغلول عنده في احقر الاشياء ، مثلما هو في اكثرها واطرها .
وفيما يستأثر به لنفسه ، مثلما هو فيما يجود به على غيره .
بل حتى الهدايا ، رآها غلولا ، او شيئا يشبه الغلول .
جاعته يوما هدية ، فاعتذر منها .. فقبل له : ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية ..

فاجاب قائلا :

« لقد كانت للرسول هدية ، ولكنها لنا رشوة » !!

* * *

ان موقفه من اموال الامة لعجيب . ثم عجيب .. !!
وان لها في مؤاده الذكى التقى لحرمة تضاهى حرمة الایمان
ذاته ، وحرمة التوحيد .. !!

يطلب منه أحد ولاته الاذن بمزيد من الشموع التى كانت دار
الإمارة تضاء بها ، ويضاء بها للامير وهو في طريقه الى المسجد لصلاة
العشاء والفجر .

فيجيبه الخليفة بكتابه هذا :

« لقد عهدتک يا ابن ام حزم ، قبل ان تكون واليا ، تخرج
من بيتک فى الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح ..
«ولعمري ، لانت يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان فى قتائل
اهلك ما يغنيك » !!!

ويكتب اليه وال آخر ، يطلب المزيد من الاقلام وورق الكتابة ،
فيجيبه الخليفة ايضا :

« اذا جاءك كتابى هذا ، فارق القلم ، واجمع الخسط ،
واجعل الحوائج الكثيرة فى الصفحة الواحدة ..
« فانه لا حاجة للمسلمين فى فضل قول اضر ببيت
مالهم .. » !!

هنا بيت القصيد .. « اضر ببيت مالهم » !!

عالمشكلة ليست مشكلة قليل او كثير من الشموع والاقلام
والاوراق .. . فما من دولة يعجزها ان تملأ ارضها شموعا واقلاما وورقا
اتها المسألة فى وعى « الحاكم القديس » هى حرمة هذه الاموال

وقد استنها .. هي تجنب التفريط والافراط فيها .. هي درجة الولاء
لمسؤولية رعايتها وحفظها .. وبهذا المعيار يصبح كل عبث بها
مرغوضا مهما تكن ضالة مقداره .

ذلك ان الاسراف الذي يتمثل اليوم في شمعة او قلم .. سيتمثل
غدا .. اذا استهين بأمره .. غيما هو أوحى عاقبة واسوا مصرا .
* * *

هكذا ارسى لحرمة الاموال قواعد راسخة من الاجلال والتقديس
ونعود الى موقفه من « مشكلة الدخل والتوزيع » ..
قلنا : ان الدولة يومها لم يكن ينقصها الثراء .. اما كان ينقصها
تقصى الحق في جمعه .. والعدل في توزيعه ..

غفيا يتعلق بالدخل .. نرى الخلفاء قبله ، وقد أرهق الترف
والسرف ميزانية الدولة ، راحوا يعوضون ذلك بجمع المال بوسائل
غير مشروعة ، وضرائب غير عادلة .

فاهل الكتاب الذين يعتنقون الاسلام ، يضع عنهم الدين ضريبة
الجزية نورا .. ولكن الدولة الاموية تآبى في ذلك حكم الاسلام ،
وتبقى الضريبة فوق كواهل الذين أسلموا ، مبررة ذلك بأنهم انما
يسلمون فرارا من الضريبة .. !!

ويجىء الخليفة العادل غير فرض هذا التبرير الزائف ، ويعلن ان
فرح الاسلام بفرد واحد يدخل دائرة نوره وهداه ، خير من ملء الارض
مالا وذهبا .

ويطلق امير المؤمنين كلماته المضيئة هذه :

« ان الله بعث « محمدا » هاديا ولم يبعثه جابيا » !!

ولقد أرسل اليه واليه على العراق « عدى بن أرطاة » : يقول
« ان الناس قد دخلوا في الاسلام أخواجا ، حتى خشيت ان يقل
الخراج » ...

فيجيبه الخليفة المقسط العظيم :

« والله ، لو ددت ان الناس كلهم مسلمون ، حتى نكون
انا وانت حراثين نأكل من كسب أيدينا . !!! »

كذلك راح يتتبع كل الضرائب التي كان الخلفاء السابقون قد
فرضوها على الناس فألغاها جميعها .

بل وحتى الضرائب المشروعة ، مثل زكاة الزروع والثمار ، كان
يضعها عن الناس عندما تنزل بمحاصيلهم جوائح ، أو تتعرض لبوار .

ها هو ذا يكتب لواليه على اليمن « عروة بن محمد » :

« أما بعسد ... »

« فقد كتبت الي تذكر انك قدمت اليمن ، فوجدت على
أهلها ضريبة من الخراج ثابتة في اعناقهم كالجزية يؤدونها
على كل مال .. ان أخصبوا ، أو أجذبوا ... ان حيوا ،
أو ماتوا . « فسبحان الله رب العالمين !! ثم سبحان الله
رب العالمين ! ! »

« اذا أتاك كتابي هذا ، فدح ما تفكره من الباطل ، الي ما
تعرفه من الحق ... »

« واعلم أنك ان لم ترغع الي من جميع اليمن الا حفنة من
كتم (١) فقد علم الله اني سأكون بها مسرورا . ما دام

(١) الكتم : نبات يخضب به الشعر ، ويصنع منه مداد للكتابة .

في ذلك ابقاء على الحق والعدل « . . . !!!

ولعل بعضنا يأخذه العجب . . فبينما كان المتوقع منا ونحن نتحدث عن « الدخل » ان نشير الى اكتشاف مصادر جديدة تزيده ، وموارد ثرة تضاعفه وتنميه ، اذا بنا نظرى سياسة الخليفة تجاه الدخل العام ، لانه الغنى الكثير من تلك المصادر والموارد . . !؟
ولكن ، ما حيلتنا ، وهذه فلسفة القديس المبارك الميمون « ابن عبد العزيز » . . !؟

ان المسألة عنده ليست مسألة كثرة . . بل مسألة وفرة . .
والوفرة ، تكون في بركة الحلال المشروع ، لا في كثرة الحرام
المغتصب .

ولعل من واجبنا قبل ان نخادر هذه النقطة من الحديث ، ان نقول لبعض المؤرخين الذين يرددون اضطراب مالية الدولة بعد موت امير المؤمنين « عمر » الى سياسته الضرائبية هذه . .
من واجبنا ان نقول لهم : اغلب الظن انكم مخطئون . .

فلقد سارت الامور في عهده كله على اتم نسق . ولم تكن تنذر باى عجز او اضطراب . بل كانت على العكس من ذلك ترهص وتبشر بمزيد من النماء والرخاء والاستقرار .

انما اضطربت فيها بعد ، حين غاب « البطل » عن مسرح العدالة والحق . . وعاد الترف والسرف والفساد ، وسياسة السسطو مرة اخرى تعبت وتمرح ، بعد ان رحل الحارس اليقظ ، والحاكم القديس !

على أن «الخطيئة» حين النفي الضرائب الظالمة ، اتاح في نفس الوقت موردا ثرا للدولة ، حين رد اليها جميع الارض والثروة التي كانت تحت ايدي الامراء .

وموردا آخر ، اعتبره امير المؤمنين من أعظم مصادر الدخل واثراها .. ذلكم هو وضع كل درهم في مكانه وضرورته .. وتحريم كل تبذير ، وتحريم كل سرف .

اجل .. لقد كان — ولا يزال — وضع المال في مكانه الصحيح ، وداخل ضرورته الملحة وحدها ، خير مورد وأبقى مصدر ..

ولقد التزم « عمر » هذا النهج التزاما يكاد يكون مطلقا مع نفسه ومع اهله ، ومع ولاته ، ومع نوى قرياه ، وأصدقائه ، والناس اجمعين .

ها هو ذا أحد المقربين اليه ، الاثريين لديه « عنبسة بن سعيد » يذهب اليه يوما ، يسأله حاجة لنفسه .

فلنطالع جواب الخليفة له :

« يا عنبسة ..

« ان يكن ما لك الذي عندك حلالا ، فهو كافيك .

« وان يكن حراما ، فلا تضيفن اليه حراما جديدا ..

« أخبرني يا عنبسة ..

.. لا .. لا ..

.. لا .. لا ..

« افن ، فكيف تطمع في أن اعمد الي مال الله ، فأعطيكه

في غير حاجة .. وادع فقراء المسلمين !
« لو كنت غارما ، لأديت عنك غريمك .. او محتاجا لأمرت
لك بما يصلح شأنك ..
« فليكن لك في مالك غناء ..
واتق الله ، وانظر من أين جمعته ، وحاسب نفسك قبل
أن يحاسبك أسرع الحاسبين » . . . !!!

ان هذا الذي قاله لصديقه الحميم « منبسة » كان يقوله لكل من
يسأله ما ليس له بحق .. على أن هذا الذي هو حق في تقديره ، لم
يكن يتمثل عنده الا في ضرورات العيش والحياة .
وهكذا أتبع له ان يحول شهقات البائسين الى بسمات متهالة ،
وغرح غاهر ، دون أن يحول السراة الى طبقة بديلة للبائسين ..
ان كل ما صنعه بهم أنه اخذ منهم قرفهم وتخمتهم ، ثم تركهم
يحiron كراما متواضعين . . . !!

* * *

وهنا ينقلنا الحديث من الدخل ، الى التسوزيع .. فكيف راح
الحاكم القديس يوزع أموال الامة ، وابن كان يضعها .. ؟؟
لقد رد المال الى وظيفته الحقيقية ، الى دوره الاصيل ومسؤوليته
الاولى في خدمة الامة وتغطية احتياجاتها :
لقد بدا . فرسم حدود الكفالة الشاملة التي ستنهض بها الدولة
تجاه مواطنيها جميعا فردا ، فردا .. وحدد بالتالي مسؤولية بيت المال
تجاه تغطية هذه الكفالة كلها :

نرى ذلك في كتابه الى ولاته :

« لا بد لكل مسلم من :

• مسكن يأوى اليه ..

• وخادم يكفيه مهنته ..

• وغرس يجاهد عليه عدوه ..

• وأثاث في بيته ..

« فوغروا ذلك كله ..

« ومن كان غارما ، فاقضوا عنه دينه » .. !!

والتعبير بكلمة « مسلم » هنا .. لا تعنى قصر هذه المزايا بل الحقوق على المسلمين وحدهم . انما استعمل هذا الوصف لغلبته لا اكثر .. ثم كانت هذه المزايا والحقوق من حق المواطنين جميعا — مسلمين واهل كتاب ...

وامر الخليفة ولاته ان يبدأوا بتغطية حاجات اقطارهم . وما غاض وبقى يرسل الى الخزانة العامة .. ومن قصر دخل اقليمه من تغطية حاجات اهله ، امده الخليفة بما يغطي عجزه :

« استوعب الخراج واحرزوه في غير ظلم ..

« فان يك كافيا للناس ، فحسبنا .. والا فاكتب الى حتى

ابعث اليك من المال ما توغر به للناس اعطياتهم » .. !!

* * *

وراح « المبارك الميمون » ينشىء في طول البلاد وعرضها دور الضيافة ، يأوى اليها المسافرون وابناء السبيل .. ومضى ، يرتفع مستوى الاجور الضعيفة ..

وكفل كل حاجات العلماء والفقهاء ليتفرغوا لعلومهم ورسالتهم
دون ان ينتظروا من أيدي الناس اجرا ..

وسخا على ولاته برواتب كبيرة ، حتى يتفرغوا لمهامهم ، وحتى
لا تضعف نفوسهم أمام اغراء الحرام ... !!

وعلى طول الدولة وعرضها كذلك ، أمر لكل اعمى بقائد يقوده
ويقضى له اموره على حساب الدولة ..

ولكل مريض او مريضين بخادم ، على حساب الدولة ..

وأمر ولاته باحصاء جميع الغارمين ، فمضى عنهم ديونهم ..

واقفدى اسرى المسلمين جميعا ، واغدى عليهم العطاء ..

وكفل اليتامى الذين لا عائل لهم في جميع اقطار دولته العريضة

المتراصة ..

وكما فعل جده العظيم — عمر بن الخطاب — من قبل ، فعل هو

ايضا ، فأمر ان يفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته ، وليس

بعد فطامه ، حتى لا تتعجل الامهات فطام الرضعا، فيتعثر نموهم ،

وتضمحل توامهم .. !!

ومن اجل الا يتحول عطاء الدولة الى فرصة للطامعين ، منع ان

يجمع احد بين عطامين ...

وحرم على جميع العاملين والموظفين ، الجمع بين راتبين مهما

تكن الاسباب .

* * *

وهكذا تنسط الناس جميعا في عهده العظيم ما افاءه الله عليهم

من خير ورزق .

وانا لنكاد نذهل امام ذلك الاجماع التساريخي الذي يحدثنا عن
اختفاء الفقر والفقراء في عهد القديس الورع ، عمر بن عبد العزيز ،
حتى لقد كان الاغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيرا يأخذها ،
وييسط يده اليها . . . !!!

فلك ان عدل « ابن عبد العزيز » لم يكف الناس حاجاتهم فحسب
بل وملاهم شعورا بالكرامة والقناعة ، فلم تعد تستهويهم الصدقات
مهما تكن كبيرة وكثيرة ، بعد ان اغناهم الله من فضله بالحق ، وبالعدل ،
وبعبده الصالح « عمر بن عبد العزيز » !!!

* * *

— ورابعا : وحدة الأمة وسلامها . .

كان الخليفة الصالح قد ورث مجتمعا ممزقا يتربص بعضه ببعض
الدوائر . . ويتربص كله بالدولة الدوائر . . !!

فخلفاء بني امية ، كانوا يتوسلون لدعم نفوذهم وسلطانهم بشحن
العصبية والقبلية والاقليمية ، فيختص احدهم بعطفه القيسية ،
ويختص آخر اليمانية . . ويميز احدهم اهل الشام . . ويميز آخر
اهل العراق .

وانتقلت العدوى من الخلفاء والولاة الى القبائل وزعمائها ،
فظهر من ينادى بسيادة اهل الحضر — وفي مواجعتهم ، ظهر من ينادى
بسيادة اهل البادية .

كذلك كان الخلفاء الامويون قد جنحوا للهبوط بمكانة المسلمين
من غير العرب — اولئك الذين عرفوا باسم « الموالي » فغرضوا عليهم

الجزية ظلما ، وحرموهم الحقوق التي يكفلها لهم الاسلام ، على الرغم من بلائهم العظيم ، وبزوغ صفوة منهم حملت لواء الاسلام عاليا في كل مجال .

كذلك كان هناك الفرق الكثيرة من شيعة وخوارج ومعتزلة منهم من يحمل السلاح في وجه الدولة وفي وجه خصومه في الراى ، ومنهم من لا يحمل السلاح ولكنه يحمل الكلمة المسمومة . . ومنهم من يلتزم حدود المنطق والحجج .

ورث « القديس » المجتمع على هذا التمزق والتشتت ، فنفخ فيه من روحه الطاهرة انظافرة نفخة مباركة نفت عنه في لحظة كل هذه الخبائث . . وطهرت لا شكل المجتمع وعلاقاته الظاهرة فحسب ، بل وضميره وروحه أيضا . فشهد مجتمع الاسلام في ايامه اخاء وثيق القراحم . . واخذ كل حقه . . وقنع كل بحقه . . !!

فأما عن الخوارج ، فقد رأينا كيف أسكتهم بالحجة والبرهان .
وأما الموالي ، فقد وضسع عنهم أصرهم ، وصحح وضعهم .
وأما النزعة القبلية والاقليمية ، فقد طواها بيمينه .
ولم يعد هناك فيسيون ويمنيون . . ولا عراقيون وشاميون . .
ولا عرب وموال .

لقد عادت رحم الاسلام تنتظم جميع أبنائه كالعقد المنظوم ، وسيطرت من جديد روحه العظيمة المتمثلة في قول الله تعالى :

« إنما المؤمنون أخوة »

* * *

ولم يقف تصور « ابن عبد العزيز » لوحدة الامة عند هذه الحدود وحدها . . بل امتد ايمانه بالوحدة ونهيمه لها الى وضع الاقليات فلأكد دمجها في جسم المجتمع المسلم ، وصان لها كل حقوقها .

ولقد رأينا في رسالة مرت بنا من قبل ، أرسلها لأحد ولاته بشأن بعض الخوارج فقال له :

« ان ساروا في الارض دون اساءة لأهل الذمة ، وللاية ، ندعهم » . .

وفي كتب كثيرة لولاته ، نراه يؤكد على الوصاية بأهل الذمة ، أولئك الذين أسماهم الاسلام — أهل الذمة — توكيدا لما في ذمة المسلمين لهم من عهد وميثاق . . . !!

لقد كانوا الى يوم استخلافه ، يلاقون الكثير من العنت . ويتبعون تحت وطأة ضرائب ظالمة . . فما كاد يتولى أمر الامة حتى أصدر أوامره الحازمة بالألا يؤخذ منهم سوى الضريبة التي شرعها الاسلام لقاء توفير الأمن لهم .

وان موقفه من قضية « كنيسة يوحنا » بدمشق لمثل رائع وباهر على عمله العظيم والنبيل لدعم الامة كأمة ، بصرف النظر عن اختلاف الدين والجنس واللون فيها . . !

كان « الوليد بن عبد الملك » قد هدم جزءا كبيرا من كنيسة يوحنا ، ليقيم عليه امتداد المسجد الاموي المشيد .

وحين ولي « عمر بن عبد العزيز » الخلافة . شكوا اليه نصارى دمشق ما حدث لكنيستهم .

تري ، ماذا يصنع أمير المؤمنين ؟
ان الجزء الذي تهدم من الكنيسة قد صار مسجدا .
وان أقصى ما يستطيعه حاكم عادل في مثل هذا الموقف ان يعطى
تعويضا سخيا ، او أرضا بديلة .

لكن « ابن عبد العزيز » يتعامل مع العدل والحق بأسلوب مختلف
عن أساليبنا . . انه أسلوب قديس جليل !!

وهكذا أصدر امره العجيب بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد ،
واعادة الأرض التي أقيم عليها الى الكنيسة . . !!

ودارت الأرض بعلماء دمشق وفقهائها ، فأرسلوا وفدهم لاقتناع
أمير المؤمنين بالعدول عن قراره .

ولكن أمير المؤمنين ، أصدر امرا جديدا حدد فيه اليوم بل الساعة
التي يجب ان تتم فيها عملية الهدم والتسليم . . !!

ولم يجد العلماء سبيلا لاتخاذ المسجد سوى ان يفاوضوا زعماء
الكنيسة في دمشق ، ويعقدوا معهم اتفاقا يرضونه ، ويتنازلوا بموجبه
عن الجزء المأخوذ من كنيستهم . ثم يذهب وفسد من الفريقين لابلاغ
ال خليفة نبأ الاتفاق . فيحمد الله عليه ، ثم يقره ويرضاه . . !!

* * *

بم انن نفسر ذلك الموقف الذي اتخذته من بعض اهل الكتاب من
الفناري . حين امر ان يعاملوا معاملة خاصة فيها تضيق عليهم ،
واخراج لهم . . ؟؟

اننا في ضوء موقفه العام الذي رايناه ، لا نرى لموقفه الطارىء هذا تفسيراً الا ان يكون قد دعاه اليه سلوك بعض اولئك الذين عملوا كطابور خامس للامبراطورية الرومانية التي كانت تثنى باسم الصليب — حروباً عدوانية على دولة الاسلام .

يزكى ذلك — في رايانا — تلك الرسالة التي حملت اوامره بشأن النصرى . فقد ركزت اهتمامها على مصادرة ما يوجد في دورهم من سلاح . . مما يوسىء الى وجود مؤامرة كانوا يهتمون بها . على انه في موقفه من هؤلاء ، لم يامر باتخاذ اى اجراء عنيف .

كل الذى امر به ان يميزوا بلباسهم الخاص . . وحتى هذا الاجراء يشير الى الريبة التي داخلت نفسه تجاههم ، فإراد ان يميزهم حتى يكون هذا التمييز سبيلاً لكشفهم .

فاذا جاوزنا هذه الفئة التي فقدت ولاءها للدولة والمجتمع ، وجدنا موقفه من المسيحيين عامة موقف الحارس الامين لحقوقهم ولعمودهم وكراماتهم .

لقد اثار موقفه من الاديان ومن حقوق الاقليات في دولته الراشدة انبهار واعجاب العالم الخارجى من حوله ، حتى ان امبراطور الروم « ليو الثالث » وقد كان خصماً عنيداً لدولة الاسلام ، لا يكاد يبلغه نبأ بعد نبأ وفاة امير المؤمنين حتى يبكى بكاءً مرا ، اذهل حاشيته واساقفته ، فسالوه في ذلك ، فأجابهم بكلمات تعتبر من اصدق واجمع ما قيل في تأبين امير المؤمنين :

لقد قال :

« مات والله ملك عادل ، ليس لعذله مثيل . . !! »

« وليس ينبغي أن يعجب الناس لراهب ترك الدنيا ليعبد
الله في صومعته .

« انما انعجب لهذا الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد
فيها . . !!

« ولقد كان حربا ان يعجل به ، فاهل الخير لا يلبثون
مع اهل الشر الا قليلا » . . . !!

افكان هذا الامراطور ايشهد فيه هذه الشهادة لو عرف عنه
أدنى اضطهاد أو انتقاص لحقوق اهل الكتاب في عهده . . ؟؟

بل هل كان كبير اساقفة الرومان سيخف مسرعا حين علم بمرض
الخليفة ، ليقيم الى جواره يطببه ويعالجه . . ؟؟

* * *

ونعود للعمل الذي عمله أمير المؤمنين من أجل وحدة الأمة ،
لنرى كيف كان في نفس الوقت عملا في سبيل سلامها الداخلي .
فالسلم الداخلي ، انما يتوفر بالقدر الذي يتجمع فيه شمل الأمة
وتتأخر ارواح بنيتها .

ولقد انعم الله عليه وعلى امته بما تمنى من وحدة الاسلام . .
فماذا عن السلم الخارجي ووضع أوزار الحروب التي كانت
مشجوبة الاوار خارج الحدود . . ؟

لقد رأيناها يبدأ في الساعات الأولى من خلافته بامسدار أمره
للجيش الذي أنهكه حصار القسطنطينية بالعودة .

ثم رأيناها يفقدى جميع الاسرى على كثرتهم ويردهم الى ديارهم
ووطنهم .

ثم نراه يضع حدا لكل الاعمال العسكرية التي كانت تقوم بها الدولة . . ويعلن أن الاسلام قد صار عزيزا منيعا بما تم له من فتوح ، وأن على جيش الدولة الا يتحرك بعد اليوم لقتال الا دفاعا عن حدود الدولة اذا هوجمت ، وعن سلامة الامة اذا تعرضت للاخطار .

واستعاض عن زحف الجيوش ، بكتبه التي ارسلها الى ملوك الهند وحكام مقاطعاتها ، يدعوهم الى الاسلام ، فاسلم اكثرهم متأثرين بما كان قد تراسى اليهم من انبساء ورعه ، وزهده ، وعظمته وتقاه . . كذلك كتب الى البربر ، في افريقية . . يدعوهم الى الاسلام فدخلوا فيه افواجا .

وكتب الى ملوك ما وراء النهر ، فاسلم اكثرهم ورفعوا راية الاسلام . .

اليس رجلا مباركا ذلك القديس . . ؟؟

* * *

— وخامسا : اسلوبه في التنفيذ . .

ماذا كانت الامة ستفيد من ورعه وزهده وتقاه وعدله ، لو لم تكن كفايته في التنفيذ موازية لكفايته في حمل المسؤولية والاخلاص لها . . ؟؟

هنا نلتقى بجانب من ابهى واغنى واقوى جوانب شخصية ذلك القديس الفطن الحازم الاريب . . نلتقى به صاحبا يقظان . .

ان كل ساعات اليوم الاربع والعشرين منذورة لمسؤولياته . . ليس منها سوى الوقت الذي تستغرقه صلاته وعبادته . .

والساعتين او الثلاث التي يمنحها لنومه وراحته ..
اما بعد ذلك ، فلا وقت لديه الا لمسؤوليته المقدسة .
وله أسلوب لمريد في انجاز هذه المسؤولية وتنفيذ منهاجها ..
غالين ، والحزم .. والاناة ، والحسم .. والاشراف العميم ،
واللامركزية .. والطاولة ، واليقظة .. كل هذه تعمل « مجتمعة » لا
« مختلطة » — في اتساق فذ وتكامل عجيب .. !!
يبلغ به التعب يوما اشده ، فيسأله بعض خاصته ان يريح نفسه
فيقول :

« ومن يجزى عنى عمل اليوم » .. ؟

فيقولون له : تنجزه في الغد ..

فيجيب : « لقد فدحني عمل يوم واحد حتى سالتهموني ان اريح
نفسى ، فكيف اذا اجتمع على عمل يومين » .. !!

انه لا يجرى حسابه الختامى كل شهر ولا كل اسبوع .. بل لكل
يوم مسؤوليته وحسابه الختامى ، ولا يحيل يوما على آخر . لان لكل
يوم مزدحمه واحماله .. !!

وهو بالنسبة لعشرات الملايين التي تنتظمها دولته الواسعة .
نداء النجدة .. لا تهتف به حاجة فرد ولا مظلمة مظلوم في احدى الارض
واقصاها الا الفتة وكأنه في انتظارها وحدها .. !!

وصفار الامور عنده مثل كبارها .. لها نفس الاهتمام والمسارة
حمل اليه بريده يوما رسالة من الجيزة بمصر .

أما صاحبة الرسالة فاسمها « فرتونة السوداء » تشكو لامير المؤمنين . ان لها حائطا — اى بستانا — متهدما يتسوره اللصوص دجاجها ، وليس معها مال تنفقه في هذا السبيل .

ولا يكاد الخليفة يتلو الرسالة وهو في عاصمة خلافته بالشام حتى يكتب الى واليه على مصر « ايوب بن شرحبيل » هذا الخطاب :
« من عبد الله عمر امير المؤمنين ، الى ايوب بن شرحبيل
« سلام الله عليكم . .

« أما بعد ، فان فرتونة السوداء كتبت الى تشكو قصر حائطها ، وان دجاجها يسرق منها ، وتسال تحصينه لها ،

ونفس البريد الذى حمل هذا الكتاب لوالى مصر . حمل كتابا آخر من الخليفة لفرتونة السوداء . .

« من عبد الله عمر بن عبد العزيز امير المؤمنين الى فرتونة السوداء .
سلام الله عليك . .

« أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، وما ذكرت فيه من قصر حائطك حيث يقتحم عليك ويسرق دجاجك .

« وقد كتبت الى « ايوب بن شرحبيل » امره ان يبنى لك الحائط حتى يحصنه مما تخافين ان شاء الله . . !!

يقول ابن عبد الحكم الذى روى لنا هذه الواقعة الباهرة :
« فلما جاء الكتاب الى ايوب بن شرحبيل ، ركب بنفسه حتى اتى الجيزة ، وظل يسأل عن « فرتونة » حتى وجدها

فاذا هي سوداء مسكينة ، فاعلى لها حائطها « .. !!
هذا خليفة قديس لم تغلت من رحمته وحسناته وعدله وأبوته
شاردة ولا واردة .. !!

ولسوف يتسع قلبه الكبير وعزمه القدير لكل شيء ..
انظروا .. !!

انه يكتب لواليه على مصر ايضا :
« أما بعمد ..

« لقد بلغنى أن الحماليين في مصر يحملون على ظهور الابل
غوق ما تحليق ..

« فاذا جاءك كتابي هذا ، فامنع ان يحمل على البعير أكثر
من ستمائة رطل .. !! »

بل انه ليصير في بعض جولاته اناسا يحملون مقارع ، في اسفلها
حديدة مدببة ينخسون بها دوابهم ، فلا يكاد يستقر في مجلسه حتى
يوقع قرارا يحرم استخدام هذه المقارع .. !!

وتأتيه يوما سلتان كبيرتان مملوءتان من رطب الاردن فيسأل :
ما هذا ؟

فيقال : رطب بعث به أمير الاردن الى أمير المؤمنين .

ويعود يسأل : وعلام جىء به .. ؟

فيقال له : على دواب البريد ..

فيهز رأسه ، ويقول :

« لقد حملتموها فوق طاقتها .. بيعوا الرطب .. »
واشكروا بثمنه علنا لدواب البريد التي حملته .. » !!

* * *

ويبهرتنا لينه ، وأناته ، وسعة صدره التي لم تعرف حدودا .
وفي تتبعنا لهذه الفضيلة لديه ، نجدها تنبع من رحمته العميقة
الاصيلة ... هذه الرحمة الذكية التي لم تكن تعنى مجرد الشفقة بالناس
بل تعنى القيام بحقوقهم في بذل العون لهم حتى يتغلبوا على نوازع الشر
فيهم ، وعلى هواجس النفس ، ونقاط الضعف ..
واتنا لنتسمع هذا الفيض الحنون النبيل من خلال دعائه الذي
كان يضرع به الى الله كثيرا :
« اللهم زد محسن أمة محمد أحسانا ، وأرجع مسيئتهم
الى التوبة .. اللهم ، وحط من أوزارهم برحمتك » . !!
انه لا يتحسس الاخطاء ، ليعاقب عليها . بل ليعالجها في رحمة
وحسان .
وان اخطاء الناس لتشفله الى المدى الذي رايناه حيث لا ينظر
اليها كحماكم ، بل كما يبد . يصلى من أجل مغفرتها وانهاض ذوبها .. !!
وهو لا يستبقى أناته وحلمه وسعة صدره وتسامحه ، داخل
اطار ذاته ... كخلق شخصي له نحسب .. بل يحولها الى فلسفة للحكم
ومنهج .
ولطالما كان يومى كل وال من ولاته بهذه الوصية :

« اذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك دون الكى ، فلا
تكوينه ابدا . . !! »

ولقد كان من حق حكام الاقاليم قبل عهده ان ينفذوا حكم القتل
فيمن يشاعون عدلا ، أو ظلما .

فلما ولى ، حرمهم هذا الحق ، واصدر امره الا ينفذ حكم القتل
فى احد ، حتى يطلع بنفسه على قضيته ، ويرى فيها رايه .

وراح يتجنب كل عنف وفسوة قائلا :

« والله لا اصلح الناس بهلاك دينى » !!

• • •

على ان رفقته واناته اللذين وستما امته جميعا ، لم يكونا مطمعا
يفرى باستضعافه أو مخادعته ، فقد كان هناك الحزم اليقظ لكل من
تسول له نفسه عبثا ، أو غثنة . . !!

ولقد كانت فضائله كلها مهياة على الدوام لحماية مواعظها واداء
دورها . فلا يجيء موقف يتطلب الرحمة ، فيجدها غافية . . ولا موقف
يتطلب الحزم ، فيجده كليل . . !

ولقد نراه مع عامة الناس ينتفض كالعصفور تواضعا وحنانا
ورحمة .

ثم نراه مع الجبارين اسدا يزار . . وجلالا يهاب . . !!

بعد ان يئس الامراء الامويون من استرداد اقطاعاتهم وثرواتهم

بالضراعة والحيلة ، اغروا واحسدا منهم وهو « عمر بن الوليد بن
عبد الملك » بالكتابة اليه مهددا متوعدا . . فكتب يقول :

« أما بعد ، فقد ازريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت
بغير سيرتهم ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل وعملت
بغير الحق في قرابتك . وعمدت الى اموال قريش
ومواريتهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلما وجورا
وعدوانا .

« فائق الله يا ابن عبد العزيز ، فانك توشك الا تطمئن
على منبرك . . . » !!!

وفي نفس اللحظة التي يفرغ الخليفة فيها من قراءة هذا الخطاب
المتسم بالسفه والطيش ، يتقدم خلق الحزم الصارم ليؤدي دوره تجاه
الباطل الذي يتوعد الحق باسترداد سلطانه وبهتائه . . !!

ويكتب امير المؤمنين رده :

« من عمر امير المؤمنين ، الى ابن الوليد . .

« سلام على من اتبع الهدى . .

« أما بعد ، فعهدى بك كنت جبارا شقيا ، والآن تكتب
تتهمنى بالظلم ، لاننى حرمتك واهسل بيتك من مال
المسلمين ما هو حق للضعيف والمسكين وابن السبيل . !

« الا ان شئت اخبرتك بمن هو اظلم منى واترك لعهد الله
انه ابوك الوليد ، الذى حين كان خليفة للمسلمين
استعملك عليهم صبيا سفيا تحكم في دمايمهم واموالهم . !

« غويل لك ، وويل لابيک — ما أكثر طلابکما وخصماء کما
يوم القيامة .. »

« وأظلم منى وأترك لعهد الله . من استعمل الحجاج بن
يوسف . يسفك الدم الحرام .. »

« وأظلم منى وأترك لعهد الله ، من استعمل يزيد بن أبي
مسلم على جميع المغرب . يجبي المال الحرام .. ويسفك
الدم الحرام .. »

« ألا رويدك يا ابن الوليد . غلو طالبت بي حياة لا تفرغن
لك ولاهل بيتك حتى أقيمکم على المحجة البيضاء » .. !!

لنضع خطابه السابق الى « فرتونة السوداء » تجاه خطابه هذا
الى ذلك الأمير الأموي المتجبر ، لنرى في غير تعليق كيف كانت تعمل
فضائل هذا الانسان الباهر الجليل .. !!

ان الرجل الذي يجلس للناس على الارض وهو خليفة ..

الانسان ، الوديع ، المسخّب ، يتحول الى اعصار مدمم امام
جيروت الباطل انى يكون .. !!

ومثل هذا الموقف من الأمرء المتمردين . موقفه من امبراطور
الروم .

لقد أخبر أن أحد جنود الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية
وكان مقاتلا شديد البأس ، قد وقع أسيرا في أيدي الرومان . وحمل
الى الامبراطور الذى حاول اكرامه على الخروج من دينه الاسلام ،
ورفض الأسير .. فأمر الامبراطور ان تسبل عيناه .

بلغ النبا — أمير المؤمنين — فذهب حزمه الشديد ليعالج الموقف .

وحمل قلبه وكتب الى ملك الروم :

« أما بعد .. »

« فقد بلغنى ما صنعت بأسيرك فلان .. »

« وانى أقسم بالله . لئن لم ترسله الى من غورك لأبعثن اليك من الجند ما يكون أولهم عندك وآخرهم عندي . ! »

ويعود الأسير الى وطنه وأهله .

* * *

وهو ذو يقظة شاملة ، لا تتجلى في الإنجاز وحده — بل وفي رؤية القضايا ، وإدراك الكليات والتفاصيل ..

ولو تتبعنا كتبه الى ولاته لوجدنا من آيات يقظته وشمول نظره وغطفته ما يبهر الألباب .

فلنتنع ببعض فقرات من تلك الكتب :

- * « اتبعوا ما أحل الله وحرموا ما حرم وأعتزوا بحقه تعالى ، واحكموا بما أنزل . »
- * « افتحوا للمسلمين باب الهجرة . »
- * « دعوا الناس يتجروا بأموالهم في البر والبحر ، لا تحولوا بين عباد الله ومعايشهم . »
- * « أبيعوا أرض الحمى للمسلمين عامة ، وليسكن حق الأمر فيها كحق واحد منهم . »

- « الخمر باب الخطايا ، فحرموا كل مسكر . »
- « كافحوا التطييف في المكيال والبنخس في الميزان . »
- « لا تتجروا وأنتم ولاية ، فان الامر اذا اشتغل بالتجارة استتار ، واصاب ظلما ، وان حرص الا يفعل . »
- « لا تأخذوا من اموال الناس الا الحق الذي شرعه الله ، وما عدا ذلك فضعوه كله ... لا افرق بين مسلم واهل كتاب . »
- « ضعوا السخرة عن الناس ، وليكن لكل عمل اجره . »
- « ردوا المزارع لما خلقت له ، فانها جعلت لارزاق المسلمين كافة . »
- « لا تتخذوا على ابوابكم حجابا يمنعون نوى الحاجات والمظلومين . »
- « اقمعوا صوت العصبية والقبلية ولا تدعوا الناس يقول احدهم ، انا مضرى ، ويقول الآخر : انا يمنى ، فالؤمنون اخوة . »
- « الخيل عدة الجهاد ، فلا تدعوها تركض في غير حق . »
- « امنعوا النساء ان يفشن شعورهن ويخرجن نائحات وراء الموتى . »
- « قاتلوا هواكم ، كما تقاتلون اعداءكم . »
- « بسددوا المخالفين ، وبصروهم ، وارفقوا بهم ، »

وعلموهم ، فان اهدتوا كانت نعمة من الله وفضلا . .
وان ابوا فتحروا الحق فيما تنزلون بهم من عقاب .
* « اكثروا من دعاء الله بالعافية لانفسكم ولبن ولاكم
الله امره ، فان لكم في اصلاحهم اكثر مما لهم . .
وعليكم من فسادهم اكثر مما عليهم .

* « تعاهدوا حجابكم ورؤسساء حرسكم وشرطكم
والعاملين معكم ، واكثروا المسألة عنهم حتى تستيقنوا
انهم لا يرتكبون غشما ولا ظلما .

* « لا ياخذنكم الزهو ينظر الناس اليكم ، ولا يحدثهم
عنكم . وضعموا اعينكم على الذي هو ابر واتقى
واخلص لله رب العالمين .

* « اتركوا اعمالكم عند حضور الصلاة ، فان من اضاع
الصلاة كان لما سواها اضيع .

* « تحروا الحق ، ثم اعملوا به بالفا ما بلغ بي ويكم . .
حتى وان ذهب بحياتنا وبمهج أنفسنا . . » !!

هذا نموذج من ارامره وتوجيهاته يكشف عن يقظة شاملة لتفكيره
ومشامره وارادته .

يقظة تعطي الجزئيات نفس الاهتمام الذي تعطيه السكيات !!
وبهذا المنهج الذي يستمد من قداسته ، وغنطته ، وعزيمه قطع

ابن عبد العزيز طريقه وثبا ، متخذاً من الانجاز وسرعة الحركة طابعاً
لمسيرته المباركة .

لقد كانت مسؤوليته عن كل شيء واضحة وضوح الشمس ،
ومشكلات الدولة والامة لا تنتظر من يكشف عنها او يفلسفها ، بل تنتظر
من يواجهها بذمة وصدق وحسم ، ففيم اذن يكون تلفت او انتظار . !!

ومن هنا انطلق بنجر ، وينجز ، وينجز . . معطياً كل مسؤول
مسؤوليته ، أمراً اياه ان يمضى بها في شجاعة وحكمة وأمانة .

اجل ، لقد كان ينهى ولاته عن ان يكونوا امعات او متواكلين ،
هيابين .

وانه ليرضى اعظم الرضا عن ولاته حين يراهم مقبلين على
مسؤولياتهم في شجاعة ، منجزين اياها في حزم ، ميممين وجوهم وأفتدتهم
صوب الحق وحده ، لا يعدلون به احداً حتى الخليفة نفسه .

« اذا ارسلت اليكم امرا يخالف الحق . .

« فاضربوا به الارض . .

« واستمسكوا بالحق وحده » !!!

وكان يعينهم على تهر التخوف من المسؤولية ، بمنحهم قدراً
كبيراً من اللامركزية ، والاستقلال .

ارسل يوماً الى احد ولاته امراً ، فارسل الوالى يستوضحه
ببعض التفصيلات . فتجهم الخليفة وكتب اليه من غوره :

« اما بعد . .

فأراك نو أرسلت اليك : ان اذبح شاة ووزع لحمها على
الشعراء ، لأرسلت الى تسألني : ضانا أم ماعزا ؟ .
فان أحببتك . . أرسلت الى تسألني :

كبيرة ، أم صغيرة ؟

فان أحببتك ، أرسلت تسأل : بيضاء ، أم سوداء . ؟ !!
« اذا أرسلت اليك بأمر . فتبين وجه الحق فيه . ثم
أمضه » . !!

انه لا يريد ان نلتكأ حقوق الناس وتنتشر في شكليات عقيمة .

انه يجد نفسه مسؤولا عن كل خطأ ، او مظلمة تبقى دقيقة من
الزمان . . ومن ثم فهو يقطع الايام وثبا وراء كل خطأ حتى يصلحه ،
ووراء كل حق حتى يؤديه لصاحبه . . !!

ويمثل هذا الحسم والانجاز . كان يفسر كل وال ، او قاض ،
او امين او رئيس شرطة ، او مسؤول لا تثبت التجربة السريعة الصادقة
انه في مكانه . . واذا خدع في احد فظنه للمنصب اهلا ، ثم تبين له انه
غير اهل ، لم ينظره لحظة تحت تأثير حرج او مجاملة .

ولقد ملأت يقظته وانجازته بلاد الدولة اعمارا وحياء ، وفجرت
طاقات الناس تفجيرا .

وعلى الرغم من انه كان يرى القدوة التي يقدمها للناس جميعا .
تفعل فيهم فعل السحر ، وتجري من ضمائرهم وسلوكهم مجرى الدم
في العروق ، فانه مع ذلك لم يغفل عن مراقبة تنفيذ منهجه بنفسه . .
فأراه يتفقل في مواطن كثيرة متخفياً ومتنكراً يسأل ، وينحص . .

ولم تكن في الحياة بأسرها متعة تشيع في روحه البهجة والغبطة
مثما يرى أو يسمع أن ظلما قد نحض . . وأن عدلا قد نهض . . وأن
حقا قد رد لصاحبه في غير جهد منه ، أو الحاف . . !!

ركب يوما في إحدى جولاته هذه ، مصطحبا معه مولاة «مزامم»
حيث خرجا إلى مفارق طرق بعيدة تعبيرا قوافل المسافرين .
وهناك راح وهو متنكر في ثيابه يسأل الغادين منم والرائحين .
ومن بين هؤلاء رجل في إحدى القوافل ، اقترب منه «عمر» وسأله:
« كيف تركت الناس في بلدك . . ؟ »

فقال الرجل : ان شئت جمعت لك خبري ، وان شئت بعضته
تبعيضا . . !!

فابتسم الخليفة ، وقال : بل اجمعه — أي ، اوجزه .
قال الرجل :

« تركت البلاد ، الظالم بها مقهور . . والمظلوم
منصور . . والغنى موفور . . والفقر مجبور » . .

وسارع «عمر» بالانصراف بعيدا عن محدثه قبل أن تشي به
انفعالاته ودموع الشكر التي راحت تتحدر من مآقيه .

وولى مسرعا . مسرعا . وقلبه انشكور ، ولسانه الذكور
يخترعان إلى الله بآيات الحمد والثناء .

والتفت إلى «مزامم» وقال له :

« والله ، لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل ،
لأحب إلى مما طلعت عليه الشمس »

□ كتب للمؤلف □

- | | |
|----------------------------|-------------------------------|
| ١ — من هنا . . نبدأ | ١٥ — في البدء كان الكلمة |
| ٢ — مواطنون . . لا رمايا | ١٦ — كما تحدث القرآن |
| ٣ — الديمقراطية ، أبدا | ١٧ — وجاء أبو بكر |
| ٤ — الدين للشعب | ١٨ — مع الضمير الاتسائي |
| ٥ — هذا . . أو الطوفان | في مسيره ومصيره |
| ٦ — لكي لا تحرثوا في البحر | ١٩ — كما تحدث الرسول |
| ٧ — لله ، والحرية | ٢٠ — أزمة الحرية في عالمنا |
| ٨ — معا على الطريق ، | ٢١ — رجال حول الرسول |
| محمد والمسيح | ٢٢ — في رحاب علي |
| ٩ — انه الانسان | ٢٣ — وداعا . . عثمان |
| ١٠ — افكار في القمة | ٢٤ — أبناء الرسول في كربلاء |
| ١١ — نحن البشر | ٢٥ — معجزة الاسلام : |
| ١٢ — انسانيات محمد | عمر بن عبد العزيز |
| ١٣ — الوصايا العشر | ٢٦ — عشرة أيام في حياة الرسول |
| ١٤ — بين يدي عمر | ٢٧ — والموعد الله |
| | ٢٨ — الدولة في الاسلام |

مطبعة دار المسالم العربي


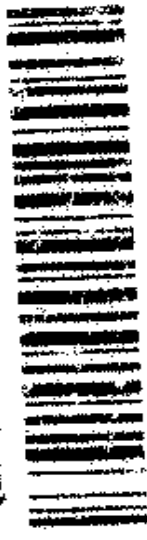
٢٣ شارع الظاهر بالقاهرة تليفون ١٠٦٧٠٦

هذا الكتاب

علينا - نحن المسلمين - أن نعيد القرآن العظيم إلى مكانه العالى في قلوبنا وحياتنا ، ونشد على راية الإسلام بسواعد قوية متفانية ، .
وعلينا أن نفيد من كل فرص التقدم النظيف دون أن نسلم رقابنا للأغلال ، وديننا للضياع ، وروحانيتنا للجفاف . .
علينا أن نذكر أن دورنا مع حركة التاريخ وصنع الحضارة لا يزال قائما ، وأن الإسلام الذى نحمل لواءه لم ينته ، ولن ينتهى دوره في ترشيده الحياة وهداية البشر . كما لن تنتهى حاجة البشرية إليه ؛ لأن عظمته الفريدة ماثلة في أنه يقدم مع حضارة المادة حضارة الروح . .
وأخيرا ، علينا أن نعمق إيماننا بأن الإسلام
دين ، ودولة . .
حق ، وقوة . .
ثقافة ، وحضارة . .
عبادة ، وسياسة . .

من الكتاب

Bibliotheca Alexandrina
0332515



To: www.al-mostafa.com